ŞAHYAR, A. E., "Hadis Tarihindeki Anlamı ve Kullanımı Bakımından Yedi Hâfız Kavramı ve Dönemi"
el-Mecelletü'l-ilmiyyetü'l-muhakkemetü li-Riâseti'ş-Şuûni't-Türkiyye 1 (2021): 18-55

HADİS TARİHİNDEKİ ANLAMI VE KULLANIMI BAKIMINDAN YEDİ HÂFIZ KAVRAMI VE DÖNEMİ

THE CONCEPT AND THE ERA OF SEVEN HUFFAZ WITH REGARDS TO ITS SIGNIFICANCE AND USAGE WITHIN THE HISTORY OF HADITH

AYŞE ESRA ŞAHYAR
DOÇ. DR.
MARMARA ÜNİVERSİTESİ / İLAHİYAT FAKÜLTESİ

Öz

İbnü's-Salâh, sahâbeden kendi dönemine kadar hadis râvilerini beş tabakaya ayırmıştır. Hicri dört ve beşinci yüzyıllara tekabül eden beşinci tabakada ise yedi hâfızın varlığından söz etmiştir. İbnü's-Salâh'a göre bu yedi hâfız, en iyi eserlere sahip olan, kendilerinden çokça istifade edilen kişilerdir. İbnü's-Salâh'ın bu yaklaşımı sonraki hadis usulü yazarlarınca da benimsenmiştir. Çağımız hadis tarihi müellifi İzmirli İsmail Hakkı ise hadis tarihini dönemlere ayırdığında, bu yedi hâfızın yaşadığı çağdan "yedi hâfız devri" olarak söz etmiştir. Nitekim bu yedi hâfızın eserleri arasında hadis edebiyatının ilkleri olan birçok tür bulunduğu gibi, sonraki yüzyıllarda hadis alanında kaleme alınan eserlerde bu kişilere çokça atıfta bulunulduğu dikkat çeker. Dolayısıyla yedi hâfız kavramının, aynı altı imam kavramı gibi bir döneme adını verecek nitelikte olduğu, hadis tarihi çalışmalarında böyle bir isimlendirme ile dört ve beşinci asırlardan bahsetmenin dönemi daha iyi anlamaya imkân vereceği söylenebilir.

Anahtar kelimeler: Hadis tarihi, hadis edebiyatı, yedi hâfız, tevârîhu'r-ruvat, Darekutnî, Hâkim en-Nîsâbûrî, el-Ezdî, Ebu Nuaym, Beyhakî, Hatib el-Bağdâdî, İbn Abdülber.

Abstract

Ibn al-Salah tackles the rawi in five categories, the first being the Ashab al Nabi and the last the Rawi of his time. In the category correspondent to 4th and 5th centuries AH, he mentions seven Huffaz. According to Ibn al Salah, the Seven Huffaz is those with the most notable works and those who are academically benefited from the most. This approach of Ibn al Salah is adopted by subsequent specialists of Usul al-Hadith as well. A contemporary specialist of history of Hadith, Ismail Hakki Izmirli, speaks of the era in which these seven huffaz lived as the "Era of Seven Huffaz" when dividing the history of Hadith into eras. Indeed it can be observed that the works of the seven huffaz include many initiatives of different genres of the literature of Hadith and that these works are referred to remarkably often in the works in the field of Hadith of the following centuries. Therefore, it can be concluded that the concept of Seven Huffaz is influential enough for the era to be named after, and the denotation of the 4th and 5th centuries AH as such would provide a better grasp of the time, as it is the case for the concept of Six Compilers of Hadith.

Keywords: History of hadith, hadith literature, Seven Huffaz, Tawarih al-ruwat, Al-Daraqutni, Hakim al-Nishapuri, Al-Azdi, Abu Nu'aym, Bayhaqi, al-Khatib al-Baghdadi, Ibn 'Abd al-Barr

مصطلح "الحفاظ السبعة" من خلال معناه في تاريخ تدوين الحديث*

عائشة إسراء شاهيار
الأستاذة المشاركة
جامعة مرمرة / كلية الإلهيات

الملخص

قسَّم ابن الصَّلاح رواة الحديث من عصر الصحابة إلى الفترة التي عاش فيها إلى خمس طبقاتٍ، وتحدَّث في الطبقة الخامسة التي تقابل القرن الهجري الرابع والخامس عن الحفَّاظ السبعة. ويرى ابن الصَّلاح أنَّ هؤلاء الحفاظ السبعة هم أحسنوا التصنيف وعظم الانتفاع بتصانيفهم. وقد تبنى علماء علوم الحديث الذين جاءوا بعد ابن الصلاح في كتبهم موقفه هذا. أما إسماعيل حقي الإزميري مؤلِّف تاريخ الحديث في عصرنا فقد تحدَّث عند تقسيمه تاريخ تدوين الحديث إلى مراحل عن العصر الذي عاش فيه الحفاظ السبعة بأنه "مرحلة الحفاظ السبعة". ومما يثير الانتباه وجود كثير من المصطلحات والعناوين التي استُخدمت للمرة الأولى في علوم الحديث في مؤلفات الحفاظ السبعة كما أنَّ الكتب التي كتبت بعدهم أكثرت مِن الإسناد إليهم والاقتباس منهم؛ ولهذا يُمكن أن يُقال إنَّ مصطلح "الحفاظ السبعة" يطلق على مرحلة معينة تماماً مثل مصطلح "الأئمة الستة" وأنَّ تسمية القرن الرابع والخامس بهذا الاسم تسهِّل فهم تلك الفترة بشكلٍ أفضلَ.

الكلمات المفتاحية: تاريخ الحديث، علوم الحديث، الحفاظ السبعة، تواريخ الرواة، الدَّارقطني، الحاكم النيسابوري، الأزْدي، أبو نُعيم، البيهقي، الخطيب البغدادي، ابن عبد البرِّ.

* هذه المقالة قد نشرت باللغة التركية في مجلة بحوث الحديث Hadis Tetkikleri Dergisi، ج 11، ع 1، س 2013، ص 27-51.

المدخل

عُرِفت أبحاث تاريخ تدوين الحديث بأنَّها أعمال معاصرة في علم الحديث وأنها امتداد لمنهج دراسة العلوم الدينية بعينٍ ناقدةٍ، بل وتعتبر العلوم الدينية أيضاً حدثاً تاريخياً.[1] ومع أنَّ استخدام مصطلح تاريخ تدوين الحديث بالمعنى الاستشراقي يدل على ما ذكرنا، لكن لا شكَّ أنَّ كلَّ من يهتمّ بعلوم الحديث اليوم يريد فهم المراحل التي مرَّ بها علم الحديث عبر التاريخ، وعمليّة تطوّره، ومراحل ازدهاره وثباته، وكذلك الاتجاهات والأشخاص الذين أثّروا في بعضهم وفي مصنفات علم الحديث الشريف بشكلٍ تاريخي متسلسل. فعندما نلقي نظرة على تاريخ تصنيف الحديث نرى مواضيع متداخلة مثل تاريخ الرواة، ونجد تصنيفات العلوم الحديثية بين صفحات كتب مصادر علوم، ونرى أن علم "الطبقات" قد حافظ على وجوده دائماً كفرعٍ لعلوم الحديث، وهو في الوقت نفسه يتطرق إلى علم التاريخ والرجال، لكنَّ الأبحاث التي تُدرس اليوم وفقاً للعُرف المعاصر بأسلوب منتظمٍ، وبإطارٍ منهجي وفق تسلسل المراحل التاريخية التي مرَّ بها علم الحديث لم تكن موجودةً في تقليد مصنفاتنا الكلاسيكيّة، ومع هذا فإنَّ كتب الطبقات والكتب التي أُلّفت في علوم الحديث تحتوي على معلوماتٍ وشروح بأعدادٍ كبيرة تمكّننا من فهم تاريخ علم الحديث ودراسته من نواحي كثيرة.

ولعلَّ النقطة الأهم في التأليف في تاريخ الحديث الشريف هي الحدود التي نتخذها أساساً في الفصل بين مراحل التأليف في علوم الحديث. والعصر الرئيسي الذي اتَّفق جميع المؤلّفين تقريباً على تسميته وعلى حدوده التاريخية هو "عصر الكتب الستة". فقد شاع مصطلح "الأئمة الستة" و"الكتب الستة" بين المحديثين اعتباراً من القرن السادس، ولاقى قبولاً واسعاً، وصار في الوقت نفسه مرجعاً رئيسياً ذا حدود تاريخية واضحة، ومؤثّراً في المصنفات الحديثية في العصور اللاحقة. وهو من ناحيةٍ أخرى العصر الذهبي للتصنيف في الحديث. وفي هذه النقطة تصبح الحاجة ملحّة لأن نتوقّف ونطرح السّؤال التّالي: هل يُمكن أن نتحدّث عن مصطلح آخر يظهر الخصائص الأساسيّة لمرحلة تاريخية أخرى كما في مصطلح "عصر

[1] إزميرلي، اسماعيل حقي، تاريخ الحديث (Hadis Tarihi)، نشر إبراهيم خطيب اوغلو، إسطنبول ٢٠٠٢، ص 20 (ملاحظات الناشر).

الكتب الستة؟" وهل هناك في هذا السياق مصطلح متَّفَق عليه في كتب الحديث وعلومه؟ هل يمكن من خلال دراسةٍ معاصرةٍ في علوم الحديث أن ندرس مصطلحاً موجوداً في كتب علوم الحديث على أنه اسمٌ لمرحلة من تاريخ الحديث الشريف؟

المصطلح الذي نفترض أنه جواب لهذه الأسئلة هو مصطلح "الحفاظ السبعة"؛ فقد استخدم كثيرٌ من المؤلفين في علوم الحديث هذا المصطلح في سياقٍ تاريخيّ آخذين بعين الاعتبار تأثيراته على مصنفات الحديث الشريف. وهذا المصطلح الذي يجمع تحت سقف واحد "حُفّاظَ الحديث السبعة" الذين عاشوا في القرن الرابع والخامس الهجري، وتوجد بينهم علاقة الشيخ والطالب يبدو كأنه يحمل خصائص تؤهله ليكون اسماً لهذه المرحلة في دراسات تاريخ تدوين الحديث الشريف.

1. "مصطلح "الحفاظ السبعة" وذكره وفقَ التّسلسل التّاريخي في المؤلفات الأولى في علوم الحديث

يعتبر علم تاريخ الرُّواة من المواضيع التي تدرس في كتب مصطلح الحديث مثل كتاب "المقدمةِ" الذي ألّفه ابن الصلاح (ت643/1245) والذي يُعدّ نقطة تحوّل في هذا المجال وفي ما كُتِبَ بعده. ويسمِّي مؤلفو كتب مصطلح الحديث هذا المجال باسم "علم الوفيات" ويعرّفونه على أنَّه "معرفة تواريخ ولادةِ ووفاة الصحابة والمحدثين والعلماء وأعمارهم"، ويذكرون أنَّه ينبغي تمييز مواضيع الجرح والتعديل عن مواضيع تواريخ الرواة.[2] وانطلاقاً من هذا فالمعلومات التي تُدرس في علوم الحديث تحت عُنوان "تاريخ الرواة" تشكّل الأرضيّة الأساسيَّة لدراسة المجال الذي يُدعى اليوم "تاريخ الحديث النبوي".

وقد استفاد المحدثون من علم الوفيات كثيراً في العصور الأولى وخصوصاً من أجل تمييز الرّوايات الموضوعة والرواة الوضّاعين. والرواية

---

[2] انظر: ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، مقدمة في علوم الحديث (تحقيق: نور الدين عتر، بيروت، 1406/1986)، ص 215؛ الأبناسي، إبراهيم بن موسى، الشذى الفيَّاح من علوم ابن الصلاح (تحقيق: صلاح فتحي هلل)، 2/1، مكتبة الرشد، 1418/1998، ص 713؛ العراقي أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح (تحقيق: أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن، 1389/1969)، ص 432.

المنسوبة إلى سفيان الثوري (ت776/160) في هذا المجال مشهورة جداً، يقولُ فيها: "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ".[3] ولكن بدأ علم الوفيات يكتسب أهميَّةً جديدة مع كونه وسيلةً للتمييز بين الخبر الموضوع والخبر المقبول إلى جانب كونه طريقاً لمعرفة فنون الحديث والمحدثين والمراحل التي مرَّت فيها علوم الحديث.

وذكر المحدِّث الأندلسي محمد بن فتوح الحميدي (1095/488) علم الوفيات بأنَّه أحد العلوم الثلاثة التي ينبغي الاهتمام بها وإعطاؤها الأولوية إلى جانب علم العلل وعلم المؤتلف والمختلف. وعلمُ العلل من هذه العلوم الثلاثة مهمٌّ لكونه يميّز بين الصحيح والسقيم، كما أن علم المؤتلف والمختلف يكتسب أهميته لكونه يميّز بين الرواة. وأما علم الوفيات فأهميته نابعةٌ من كونه يساعد على معرفة المحدثين من ناحية العصور التي عاشوا فيها.[4]

وقد صنَّف ابن الصلاح ومن بعده من مؤلّفي كتب مصطلح الحديث "علم الوفيات" أو ما يسمى "تاريخ الرواة" من خلال تقسيمه إلى مراحل زمنيّة محددة. فالمرحلة الأولى في هذا التصنيف هي وفيات رسول الله والعشرة المبشرين بالجنة، وبعد هذا تأتي طبقة المعمّرين الذين عاشوا في عصر الجاهلية والإسلام. والمرحلة الثالثة هي طبقة أئمة المذاهب. ويذكر في المرحلة الرابعة مؤلّفي الكتب الخمسة أو الكتب الستة. أما المرحلة الخامسة فهي مرحلة "الحفاظ السبعة"،[5] وبهذا التصنيف يكون علماء

---

3 ابن الصلاح، علوم الحديث، ص 216؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، اختصار علوم الحديث (تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، 1408)، ص 176؛ الأبناسي، الشذى، ص 713.

4 ابن الصلاح، علوم الحديث، ص 216.

5 انظر: ابن الصلاح، علوم الحديث، ص 216–218؛ النووي، التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحدث (تحقيق: محمد عثمان الخشت، بيروت 1985/1405)؛ ص 117–119؛ ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم الكناني، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث، (تحقيق: محي الدين عبد الرحمن رمضان، دمشق، 1406)، ص 141–144؛ ابن كثير، اختصار علوم الحديث ، ص 176–179؛ الأبناسي، الشذى، 2/–713 718؛ ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص، المقنع في علوم الحديث (تحقيق: عبد الله بن يوسف الجديع، السعودية، 1413)، 2/–644 656؛ العراقي، التقييد، ص 432–439؛ السوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، 1988/1409)، 2/352–367.

مصطلح الحديث قد رتّبوا مصنفاتهم باعتبار تواريخ وفيات الشخصيات الرئيسية، وأعطوا تسلسلاً زمنياً تاريخياً لعلم الحديث أيضاً. وبهذا يكون عصر تدوين الكتب الستة الذي يُعدُّ عصراً ذهبيّاً في تاريخ الحديث بعد عصر "أئمة المذاهب" وقبل عصر الحفاظ السبعة. وبتعبير آخر يمكن أن نقول: إن عهد الحفاظ السبعة هو المرحلة التي تأتي بعد عصر الأئمة الستة، وهذا العصر مهمٌّ لفهم التطورات التي حدثت في علوم الحديث بعد العصر الذهبي عصر الأئمة الستة.

ولا يصح القول إنَّ العلماء الذين ألّفوا في علوم الحديث قد كتبوا تاريخ تدوين علم الحديث بالمعنى المعاصر من خلال ما ذكرناه؛ فإسماعيل حقي الإزميري (1946/1365) الذي عُرف بكتابه تاريخ الحديث الشريف لا يمتنع عن بيان أنَّه هو أوَّل من دوَّن تاريخ تدوين الحديث الشريف.[6] ومن ناحية أخرى فالإزميريُّ في تاريخ الحديث الذي ألّفه يقسم المراحل التي مرَّ بها علم الحديث إلى ثماني مراحل، وعَدَّ بعد عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر أتباع التابعين، والعصر الرابع الذي يمتدُّ حتى عام ثلاثمئة هجرياً العصرَ الخامسَ الذي ذكره باسم عصر "الحفاظ السبعة."[7] ولهذا فيبدو أنَّ ما كتبه مؤلّفو علوم الحديث كابن الصلاح ومن بعده في الوفيات أو تواريخ الرواة يشكّل مصدراً للأبحاث التي كُتبت في تاريخ الحديث الشريف في العصر الحديث. وعلى هذا التقدير فهذا التصنيف يُمكن أنْ يُعدَّ تصنيفاً جديداً في تاريخ تدوين الحديث، ويمكن اعتبار مصطلح "الحفاظ السبعة" مصطلحاً من مصطلحات تاريخ الحديث الشريف.

وعندما تحدَّث ابن الصلاح في علم الوفيات قسَّم تاريخ الحديث الشريف إلى مراحل، وقال عن الحفاظ السبعة في المرحلة الخامسة ما يلي:

"سَبْعَةٌ مِنَ الْحُفَّاظِ أَحْسَنُوا التَّصْنِيفَ، وَعَظُمَ الِانْتِفَاعُ بِتَصَانِيفِهِمْ فِي أَعْصَارِنَا: أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ الدَّارَقُطْنِيُّ الْبَغْدَادِيُّ: مَاتَ بِهَا فِي ذِي الْقِعْدَةِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وُلِدَ فِي ذِي الْقِعْدَةِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِمِائَةٍ. ثُمَّ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ الْبَيِّعِ النَّيْسَابُورِيُّ: مَاتَ بِهَا فِي صَفَرٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَوُلِدَ بِهَا فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ

[6] إزمرلي، ص 20.
[7] إزمرلي، ص 283.

وَثَلَاثِمِائَةٍ. ثُمَّ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْغَنِيّ بْنُ سَعِيدٍ الْأَزْدِيُّ حَافِظُ مِصْرَ: وُلِدَ فِي ذِي الْقِعْدَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَمَاتَ بِمِصْرَ فِي صَفَرٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ. ثُمَّ أَبُو نُعَيْمٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْأَصْبَهَانِيُّ الْحَافِظُ: وُلِدَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَمَاتَ فِي صَفَرٍ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ بِأَصْبَهَانَ".

وبعد أن ذكر ابنُ الصَّلاح هذه الأسماء الأربعة من الحفاظ السبعة، عدَّ ثلاثة حفاظ آخرين، بيَّن أنَّهم من الطبقة التالية فقال: "وَمِنَ الطَّبَقَةِ الْأُخْرَى: أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ النَّمَرِيُّ حَافِظُ أَهْلِ الْمَغْرِبِ: وُلِدَ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَمَاتَ بِشَاطِبَةَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ. ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْبَيْهَقِيُّ: وُلِدَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَمَاتَ بِنَيْسَابُورَ فِي جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَنُقِلَ إِلَى بَيْهَقَ فَدُفِنَ بِهَا. ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ: وُلِدَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَمَاتَ بِبَغْدَادَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، رَحِمَهُمُ اللهُ وَإِيَّانَا وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَاللهُ أَعْلَمُ."[8]

وقد تمَّ تبنّي تصنيف ابن الصَّلاح هذا في التاريخ والوفيات من قبل المصنّفين الذين جاءوا من بعده كالنَّووي (ت676/1277)، وابن جماعة (ت733/1332)، وابن كثير (ت774/1372)، والأبناسي (ت802/1399)، وابن الملقن (ت804/1401)، والعراقي (ت806/1403)، والسيوطي (ت911/1505). حيث قام هؤلاء المؤلّفون بتكرار ما ذكره ابن الصلاح في كتبهم. وكذلك تكرَّر مصطلح الحفاظ السبعة في هذه الكتب، وذُكرت هذه الأسماء نفسُها من قبل علماء الحديث على أنَّهم "الحفَّاظ السّبعة".[9] وهكذا يُمكن القول بوجود مصطلح "الحفَّاظ السبعة" إلى جانب مصطلح "الأئمة الستة" الذي لاقى قبولاً في كتب الحديث، فبينما عُرِّف "أئمة الكتب الستة" بأنَّهم "مصنّفو كتب الحديث المعتمدة" ذُكر "حفَّاظ الحديث السبعة" بأنَّهم "أفضل من قام بالتصنيف وأكثر من استُفيد منهم في العصور اللاحقة".[10] وهكذا تكون النُّقطة المشتركة بين "أئمة الحديث الستة" و"حفاظ الحديث

8 ابن الصلاح، علوم الحديث، ص 218.

9 انظر: النووي، التقريب ص 119؛ ابن جماعة، منهل، ص 143–144؛ ابن كثير، اختصار، ص 241؛ الأبناسي، شذى، 717/2؛ ابن الملقن، المقنع، 654/2–655؛ العراقي، التقييد، ص 439؛ السيوطي، تدريب، 364/2.

10 ابن الصلاح، علوم الحديث، ص 218.

السبعة" الذين سميت عصورهم بأسمائهم أنهم كانوا شخصيات رئيسية أثّرت في علوم الحديث على العصور التي جاءت بعدهم. ويُمكن أن يُقال أيضاً إنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء، كان شخصيةً كبيرةً وصاحب كلمةٍ وتأثير في مجالات علم الحديث المتنوعة. وبسبب خصائصهم هذه سميت العصور التي عاشوا فيها باسمهم.

وعندما سأل أحد حفَّاظ الحديث محمد بن طاهر المقدسي (ت1113/507)، والمعروف بابن القيسراني شيخَه أبا القاسم سعد بن علي الزّنجاني المكّي (ت1078/471) عَنْ أَرْبَعَة تَعَاصرُوا: أَيُّهُم أَحْفَظُ؟ قَالَ: مَن؟ قال: "الدَّارَقُطْنِيُّ، وَعَبْدُ الغَنِي، وَابْنُ مَنْدَه، وَالحَاكِم. فَقَالَ: أَمَا الدَّارَقُطْنِيُّ فَأَعْلَمُهُم بِالعِلَل، وَأَمَّا عَبْدُ الغَنِي فَأَعْلَمُهُم بِالأَنْسَاب، وَأَمَّا ابْنُ مَنْدَه فَأَكْثَرُهُم حَدِيْثاً مَعَ مَعْرِفَة تَامَّة، وَأَمَّا الحَاكِمُ فَأَحْسَنُهُم تَصْنِيْفاً."[11]

ثلاثة من هذه الأسماء الأربعة التي ذكرها المقدسيّ بين العلماء الرّئيسيين في عصره مذكورة لاحقًا بين حفظة الحديث السّبعة. ويُمكن من خلال هذا أن نقول بأنَّ الشخصيات المذكورة قد اشتهرت كشخصياتٍ مؤثرةٍ في عصرها وفي العصور التي تلتها. وعند التأمُّل في جواب الزّنجاني يظهر أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء كان متميّزاً في مجاله واختصاصه. ويُمكن أن يقال أيضاً بأنَّ هذا الجواب قد هيأ الأرضيّة لظهور مصطلح "الحفَّاظ السبعة". فمع سؤال المقدسي وجواب الزّنجاني تبيّنت الطّبقة الأولى من الحفَّاظ السبعة مع خصائصهم التي تميّزوا بها.

وقد قسَّم ابن الصَّلاح كما ذكر في الأعلى حفَّاظ الحديث السبعة إلى طبقتين. يوجد في الطبقة الأولى الدارقُطني، والحاكم النيسابوري، وعبد الغني الأزْدي، وأبو نُعيم الأصفهاني، وفي الطبقة الثانية ابن عبد البرّ، والبيهقي، والخطيب البغدادي. ويمتدُّ العصر الذي عاش فيه حفَّاظ الحديث السبعة من بداية القرن الرابع الهجري إلى أواسط القرن الخامس الهجري، أي قُرابة قرنٍ ونصف قرن. ويمكن أن تحدد بداية ونهاية هذه الفترة من ولادة الدارقطني سنة 306هـ إلى وفاة الخطيب البغدادي وابن عبد البرّ عام 463هـ.

---

[11] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، (تحقيق: شعيب الأرناؤوط وغيره، بيروت، 1985/1405)، 174/17.

وقد سبق الدارقطني الحفاظ السبعة الآخرين في الترتيب التاريخي ويُعدُّ شيخاً لهم. فالحاكم النيسابوري وعبد الغني الأزدي وأبو نعيم الأصفهاني من الطبقة الأولى لحفاظ الحديث السبعة يُذكَرون من بين تلامذة الدارقطني. أما في الطبقة الثانية من حفَّاظ الحديث السبعة فالبيهقي تلميذ للحاكم، وابن عبد البرِّ من تلامذة عبد الغني الأزْدي، والخطيب البغدادي من تلامذة أبي نعيم. وفي هذه الحالة فالدارقطني يُذكر في التاريخ بأنَّه شيخ لثلاثة من الطبقة الأولى من الحفاظ السبعة، وهو شيخ الشيوخ الثلاثة الآخرين من الطبقة الثانية. وفي هذا الصّدد يُمكن أن يُسمى الدارقطني إمام الحفاظ السبعة، كما يُسمى البخاري إمام أئمة الحديث الستة.[12] وبعض العلماء يذكرون أيضاً القرن الرابع الهجري بأنه "قرن الدارقطني."[13]

ويمكن أن نربط علاقة الحفاظ السبعة ببعضهم كشيوخ وتلامذة من خلال هذا الشكل:

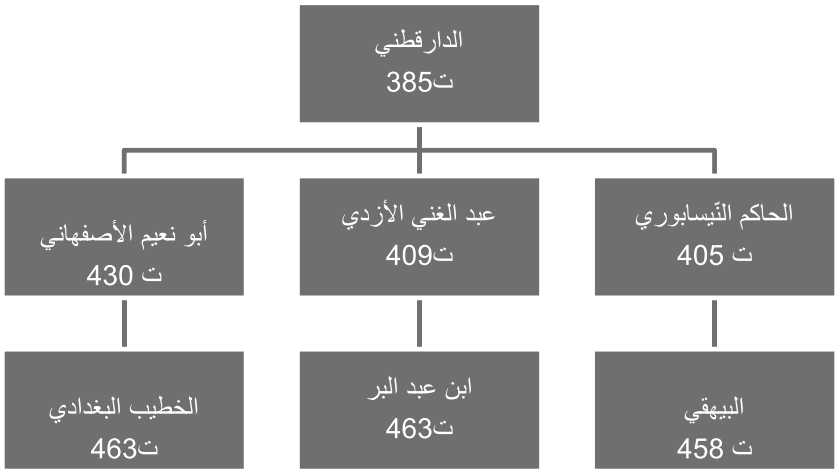

[12] فيما يتعلق باستخدام تعبير مدرسة البخاري يُنظَرُ: جاقان، إسماعيل لطفي، أساسيات علم الحديث (Ana Hatlarıyla Hadis)، إسطنبول، 2005، ص 131.

[13] الرحيلي، عبد الله بن ضيف الله، الإمام أبو الحسن الدارقطني وآثاره العلمية، (جدة، 1421/2000)، ص 30-33.

لا شكَّ أنَّ عدداً كبيراً من العلماء والمحدّثين قد عاشوا في هذا العصر إضافة إلى هؤلاء السبعة؛ فالذهبي مثلاً ذكر في كتابه "طبقات الحفَّاظ" في الطبقة الثانية عشر التي ذكر فيها الإمام الدارقطني، ما مجموعه تسعة وسبعون من حفَّاظ الحديث، وذكر في الطبقة الثالثة عشرة التي ينتمي إليها الحاكم وعبد الغني الأزْدي وأبو نعيم ثلاثة وسبعين، وذكر في الطبقة الرابعة عشرة التي ينتمي إليها البيهقي وابن عبد البرّ والخطيب البغدادي ثلاثين من حفَّاظ الحديث.[14] وذَكر ابنُ كثير أيضاً عند حديثه عن طبقة الحفَّاظ السبعة التي تلي طبقة أئمة الكتب الستة علماء آخرين مثل البزَّار (ت292/904)، وأبي يَعلى الموصلي (ت307/919)، وابن خزيمة (ت311/923)، وابن حبان (ت354/965)، والطّبراني (ت360/970)، وابن عَدي (ت365/976).[15]

أما ابنُ الملقّن فقد أضاف إلى هؤلاء الحفَّاظ السبعة الطبرانيَّ (ت360/970)، والإسماعيلي الجُرجاني (ت371/981)، والبرقاني (ت425/1033)، ومحمد بن فتوح الحميدي (ت488/1095)، والبغوي (ت516/1122).[16] لكنَّ هؤلاء العلماء مع تميّزهم في عصرهم إلا أنَّ أسماءهم لم تجتمع تحت مظلة مصطلحٍ واحدٍ محددٍ كما في الحفَّاظ السبعة، ولم يقع إجماعٌ على ذكر أسمائهم. وبتعبير آخر يبدو أنَّه قد شاع إطلاق اسم عصر الحفاظ السبعة على القرن الهجري الرابع والنصف الأول من القرن الهجري الخامس، ولاقى هذا قبولاً.

وعندما تحدَّث العالم الهندي صدّيق حسن خان (ت.1307/1890) في كتابه "أبجد العلوم" الذي كان موضوعه تصنيف العلوم عن الكتب المؤلَّفة في علم الحديث، ذكر الكتب الستة والموطأ أولاً، ثمَّ قال: "واعلم أن المحدثين ألحقوا بالكتب الستة جامع أبي الحسن رزين العبدري صاحب الجمع بين الصحاح، وجامع الحميدي بين الصحيحين، وجامع البرقاتي لجمعه بينهما، وجامع أبي مسعود الدمشقي أيضا لجمعه بين الصحيحين. ثمَّ اختاروا من المصنّفين سبعةً وألحقوا كتبهم بالصِّحاح لعظم نفعها، فهم:

---

[14] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، (تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بيروت، 1423/2002)، ص 69، 143، 215.

[15] ابن كثير، اختصار، ص 180.

[16] ابن الملقن، المقنع، 656/2.

الدارقطني والحاكم أبو عبد الله النيسابوري وأبو محمد عبد الغني الأزدي المصري وأبو نعيم الأصبهاني صاحب الحلية وابن عبد البر حافظ المغرب والبيهقي والخطيب البغدادي."[17]

وهكذا يلاحظ عند ذكر المصنفات الحديثية في كتاب "تصنيف العلوم" أنَّه قد ذُكر هؤلاء الحفَّاظ السبعة بوصفهم مؤلّفي كتب الحديث الرئيسيَّة بعد الكتب الستة وكتب الجمع بين الصحيحين، وعُرِّف كلٌّ واحد منهم بأنَّه قد ترك كتباً ومصنَّفات عمَّ نفعُها.

وإذا نظرنا إلى البُقعة الجغرافية التي عاش فيها هؤلاء الحفَّاظ السبعة نرى أنَّ كلَّ واحد منهم كان في منطقة مختلفة من العالم الإسلامي. فإقامة الدارقُطني والخطيب البغدادي كانت في منطقة العراق، والحاكم والبيهقي في نيسابور، والأزْدي في مصر، وأبو نُعيم في أصفهان، وابن عبد البرّ في الأندلس. ولهذا فإنَّ ذكر حفَّاظ الحديث السبعة الذين انتشروا في مناطق جغرافية واسعة من نيسابور إلى قرطبة وعاشوا في عصرٍ واحدٍ تحت مظلّة مصطلح واحد أمرٌ يثير العجب. والإشارة في هذا السياق إلى مكانة كلِّ واحد من هؤلاء الحفاظ السبعة في تاريخ الحديث الشريف وعلومه من ناحية النقاط المشتركة والمختلفة بينهم، وسبب إطلاق لقب الحافظ على كل واحد منهم، ودراسة التطورات التي ظهرت في علم الحديث معهم، ستساهم في فهم مرحلة مهمَّة من تاريخ الحديث الشريف. لأنَّ عصر الحفَّاظ السبعة يأتي بعد العصر الذهبي للتصنيف في الحديث. كما أن المرحلة السادسة التي تلي مرحلة الحفَّاظ السبعة تُعد هي المرحلة التي وصلت فيها علوم الحديث حدَّ الكمال.[18] والمرحلة الزمنية الممتدة عبر قرنٍ ونصف قرنٍ والتي تفصل بين مرحلتي الكمال كانت مرحلة نشطةً ومزدهرةً جداً.

2. الوسط السياسيُّ والعلميُّ والفكريُّ للعالم الإسلامي في عهد الحفَّاظ السبعة

إنَّ الفترة الممتدة من القرن الهجري الرابع إلى منتصف القرن الهجري الخامس هي فترةٌ سادت فيها الفوضى السياسية في العالم الإسلامي.

17 القنوجي، صديق حسن خان، (أبجد العلوم، بيروت، 2002/1423)، ص 366.
18 انظر: إزمرلي، المصدر السابق، ص 283.

فضعُف نفوذُ سُلطة الدولة العباسية، ونشأ الكثير من الدويلات في العالم الإسلامي في ذلك الوقت. والعصر الذي عاش فيه الدارقطني أوَّل الحفاظ السبعة لم يكن عصراً مزدهراً من عصور الدولة العباسيَّة. فقد وُلد الدارقطني في سنوات حُكم الخليفة العباسي المقتدر بالله. وهذه الفترة هي من أشدِّ مراحل ضعف الدولة العباسية سياسياً واقتصادياً. وبعد عام 320 هجري آلت الخلافة إلى الخلفية القاهر بالله، وتولى الحكم كثير من الخلفاء لفترات قصيرة. وكانت الفوضى الداخليَّة التي تَسبَّب بها القرامطة عارمة في تلك الفترة. ونشأةُ الدارقطني في بغداد مركزِ الخلافة تعني أنَّه عاش في قلب كلِّ هذه الفوضى.[19]

وفي عصر الأزْدي أحد الحفَّاظ السبعة في مصر كان الفاطميون يحكمون شمال أفريقيا، بل وأنهوا الحكم الإخشيدي على مصر وسيطروا عليها عام 358 هجري.[20] وفي عام 1031/422 انهارت الخلافة الأموية في الأندلس وبدأ عهد ملوك الطوائف،[21] وهذه الأحداث تُصادف عهد ابن عبد البرّ أحد الحفاظ السبعة.

وعاش الحاكم النيسابوري في عهد السّامانيّين، وكانت المنطقة في تلك الفترة تحت تهديد الشيعة البويهيين. وعاش تلميذه البيهقي أيضاً سنواته الأولى في عهد البويهيين، ثمَّ عاش في عهد الغزنويين، وفي نهاية عمره عاش تحت السُلطة السلجوقية. وكان عميد الملك أبو النصر الكندري وزير السلطان السلجوقي طغرل بك كان معتزلي المذهب وظلم الأشاعرة ومنعهم من الوعظ والتدريس، فقد تسبب هذا في إجبار البيهقي على ترك تلك المنطقة فترةً من الزّمن مع بعض مشاهير الأشاعرة كالجويني والقُشيري.[22] وفي عام 999/389 فقد السامانيون سيطرتهم على أراضي

---

19 الرحيلي، أبو الحسن الدارقطني، ص 30-31.

20 بوينوكالن، عمر، كتاب الحافظ عبد الغني الأزدي المسمى الغوامض والمبهمات، جامعة *(Hafız Abdülğani el-Ezdî'nin el-Gavâmız ve'l-mübhemât Adlı Eseri)* مرمرة معهد العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير لم تطبع، إسطنبول، 1991، ص 17-18.

21 انظر: أوزدمير، محمد، الأندلس،(*DİA*, "Endülüs") ، الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 214/21.

22 في هذا الخصوص انظر: يغيت، أيوب، حياة الإمام البيهقي وآرائه العقدية، جامعة يوزونجويل،)معهد *(İmam Beyhaki'nin Hayatı ve İtikadi Görüşleri,)* العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير لم تطبع، وان، 2013)، ص 20-25.

خراسان، واستولى الغزنويّون على المنطقة،[23] وهذه الاضطرابات أثّرت في أبي نُعيم من جوانب كثيرة؛ فمُنع من التدريس في المساجد، بل وقُتل كثير من الناس نتيجةَ الهُجوم الذي تَعرض له المسجد الذي يُدرِّس فيه.[24]

وكان الخطيب البغدادي يدرّس تحت حماية الوزير ابن المسلمة في عهد الخليفة القائم بأمر الله. وأَدرك ابن المسلمة ازدياد الخطر الشيعي الفاطمي، فدعا السلطان السلجوقي طغرل بك إلى بغداد عام 1055/447. ولكن بعد خروج طغرل من بغداد بفترةٍ وجيزةٍ قُتل ابن المسلمة بتحريضٍ من الخليفة الفاطمي، ووَجد البعض مقتل الوزير فرصةً ليضيّقوا على الخطيب البغدادي، وأُجبِرَ الخطيب على الخروج من بغداد عام 1059/451. ولكن مدينة دمشق التي ذهب إليها كانت تحت الحكم الفاطمي أيضاً. ولأنَّ الخطيب البغدادي كان يُقرئُ كتاب فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل في دمشق ولأسباب أخرى حُكم عليه بالإعدام، فاضطر للعودة إلى بغداد من جديد.[25]

وهذه الفوضى التي كانت سائدةً في العالم الإسلامي جلبت معها صراعاً مذهبياً قويًّا. فالدولتان الفاطمية والبويهية الشيعيتان كانتا تشكِّلان عنصرَ تهديدٍ متزايدٍ مع الوقت ضدَّ الدولة العباسيّة، وكانت الدولة العباسية تزداد ضعفاً مع الوقت أمام هاتين الدولتين، إذ تقع إحداهما شمال أفريقيا من الغرب والأخرى في خراسان من الشرق؛ وكانت قوتُهما تزداد مع الوقت.

أما الحُكَّام فمن أجل دعم سلطتهم السياسيَّة كان كلّ واحد منهم يدعم إحدى الفِرق العقدية؛ لكن هذا تسبب في تعرض بعض الفرق للاضطهاد. فكان القرن الخامس الهجري فترة تعرض فيها الأشاعرة بشكل خاص للإقصاء والنبذ بين الفينة والأخرى. واستمرَّت حالة الاضطهاد هذه إلى وفاة طُغرُل (1063/455) حيث خلفه ألب أرسلان بعد سنة، وعزَل الوزير

---

[23] انظر: أوسطه، آيدن، السامانيين، (*DİA*, "Sâmânîler") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 65/36.

[24] الذهبي، سير، 460/17.

[25] قاندَمير، م. ياشار، "الخطيب البغدادي" (*DİA*, "Hatîb el-Bağdâdî") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 453/16-454.

عميد الملك الكندري ليحل محله نظام الملك. ومع نظام الملك زالت حالة الاضطهاد عن الأشاعرة.[26]

وكان الحفَّاظ السبعة كلُّهم من الأشعرية ما عدا الدارقُطني الذي تبنَّى عقيدة السلفِ؛ لكن من العجيب أنَّهم جميعاً اتُّهموا بالتشيُّع. فالدارقطني الذي كان مُحباً للأدب والشعر، اتُّهم بالتشيع بسبب حفظه لديوان الأديب الشيعي حافظ الحميري.[27] ووصف بعضُ المؤرخين الإمام الحاكم الذي أخرج في كتابه "المستدرك" أحاديث في فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأنه يتشيّع.[28] وانتُقد الأزْدي من قبل بعض العلماء لأنَّ علاقته كانت جيدةً مع الدولة الفاطمية، ولكنَّ الذهبي عذره في هذا بحُجَّة أنَّه كان يريد الحفاظ على حياته.[29] واتُّهم ابن عبد البرّ من قبل ابن تيميَّة بأنَّه كان ينشيع، لكنَّ أشير إلى أنَّ تشيعه لم يصل إلى حدِّ تفضيل عليّ رضي الله عنه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[30] وقد شاع الاتّهام بالتشيّع في هذه المرحلة، ولعلّ هذا كان استراتيجية لامتهانِ العلماء وإقصائهم استفادةً من نفور المجتمع من الدولة البويهية والفاطمية. أو رُبما تكون ردَّاتُ الفعل ضدّ التشيّع قد كَونت أرضيَّة حسَّاسة تسببت في ظهور الاتّهام بالتشيّع لمن تكون له أدنى علاقة مع الشيعة أو لمن يكتب أي شيء يتعلَّق بأهل البيت.

ويشكِّل القرنان الهجريان الرابع والخامس فترةً غنيَّةً فكريّاً، ومتنوعة في المذاهب والمشارب. وقد عاش في هذه الفترة شخصيتان مؤثِّرتان في عقيدة أهل السنة وهما أبو الحسن الأشعري (935/324) والماتريدي (944/333)، وكان الفكر الاعتزالي أيضاً منتشراً في هذه الفترة. ومن بين علماء هذا العصر من أصوليّ الحنفية الكرخي (951/340)، والجصَّاص (980/370)، والدّبوسي (1038/430). ومع هؤلاء العلماء بدأ عصر التأليف في أصول الحنفية. وعلى الجانب الآخر كانت النقاشات والمناظرات بين

---

[26] في هذا الخصوص انظر: يغيت، المرجع السابق، ص 20-25.

[27] الذهبي، سير، 452/16.

[28] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، (تحقيق: بشار عوَّاد معروف، بيروت، 2002/1422)، 509/3؛ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، (تحقيق: عمر بن غرامه العمروي، دار الفكر، 1995/1415)، 27/73.

[29] الذهبي، سير، 271/17.

[30] ابن تيمية، تقي الدين أحمد، منهاج السنة النبوية، (تحقيق محمد رشاد سالم، الرياض، 1986/1406)، 373/7.

أهل الحديث وأهل الرأي مستمرة بلا هوادة، وقد أراد الحاكم النيسابوري والخطيب البغدادي في كتب مصطلح الحديث التي ألَّفوها أن يردوا على انتقادات أهل الرأي والمعتزلة الموجَّهة إلى أهل الحديث، وأن يثبتوا تفوّق أهل الحديث. ومؤلَّفات الخطيب البغدادي وابن عبد البرّ التي تحدَّثت عن ضرورة دمج الفقه مع الحديث الشريف قد برهنت على اهتمام أهل الحديث بالفقه وقوَّت موقفهم.

وكان الجدل بين الحنبليّة والشّافعيّة من أبرز الصِّراعات الفكريّة في القرن الرابع والخامس الهجري. فقد حدثت مثلاً منازعة بين أبي عبد الله بن منده وأبي نُعيم الأصفهاني، وتبادلا الاتّهامات؛ حتى ذكرت بعض الروايات أنَّ الطلبة الحنابلة قاطعوا أبا نُعيم ومنعوه من دخول مسجده في أصفهان.[31] وانتَقد الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد بعض علماء الحنابلة انتقاداً حادّاً، ولاقى في المقابل أيضاً مُضايقات من الحنابلة.[32]

وقد تحدَّثنا من قبل أنَّ المقدسي ذكر الدارقطني وعبد الغني الأزدي والحاكم النيسابوري وابن منده بأنهم أربع شخصيات مهمّة من حفَّاظ الحديث في هذا العصر؛ لكنَّ ابن الصَّلاح ومن بعده عندما ذكروا حفَّاظ الحديث السبعة الرئيسيين في هذه المرحلة لم يذكروا ابن منده من بينهم. أما الزنجانيُّ فقد بيَّن أنَّ ابن منده هو الأحفظ للحديث من بين هؤلاء السبعة. وعدم ذكر ابن منده على الرُّغم من هذا يشير إلى احتمالية استمرار الصراع بين الحنفية والشافعية. فمن النقاط المشتركة المهمة بين حفَّاظ الحديث السبعة هي أنَّهم كانوا شافعيّة كلُّهم، عدا ابن عبد البر. وابن عبد البر أيضاً تبنَّى بعض آراء الشافعية في الفقه مع كونه مالكيّاً.[33]

3. الخصائص المشتركة والمتقاربة بين حفَّاظ الحديث السبعة وجوانب تقاربهم

إنَّ النقطة الرئيسيَّة المشتركة بين المحدّثين السبعة الذين سُميَّ عصرهم باسمهم هي أنهم جميعاً لُقِّبوا بـ "الحافظ". ومصطلح الحافظ هو مصطلح

---

[31] الذهبي، سير، 17/459–460؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، لسان الميزان، (بيروت، 1406/1986)، 1/201.

[32] قاندمير، م. يشار، الخطيب البغدادي، (Hatîb el-Bağdâdî)، 16/453–454.

[33] ليث سعود جاسم، ابن عبد البر النمري، (*DİA*, "İbn Abdülberr en-Nemerî") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 19/269.

يدل على التعديل، بدأ استخدامه بشكلٍ خاصٍ كلقبٍ يرافق اسم صاحبه مشيراً إلى وقوفه على علم الحديث، اعتباراً من القرن الثالث الهجري. وبدأ هذا الاستعمال يستقرُّ في القرن الرابع شيئاً فشيئاً. أمَّا في القرن السادس الهجري فقد بدأ تأليف الكتب التي تجمع سِيَر حفَّاظ الحديث.[34]

والمحدِّث الذي يلقَّب بالحافظ هو عالمٌ وصل إلى مستوًى يندُر الوصول إليه ويحفظ أحاديث جمَّةً. فلو قال مَن يلقَّب بالحافظ عن حديث أنَّه لم يسمع به فهذا يشير إلى أنَّ الحديث لا أصل له. ومن ناحية أخرى يكون مَن يلقَّب بالحافظ من المحدثين على علمٍ برجال الحديث، قادراً على التمييز بين الحديث الصحيح والضعيف، ووصل إلى مستوًى يستطيع من خلاله معرفةُ العللِ في الأسانيد والمتونِ. وهو أهلٌ لرواية الحديث، عدلٌ ضابطٌ، يروي عدداً كبيراً من الأحاديث. وتعتبر آراؤه في الأحاديث مرجِعاً وتطبيقاته مستنداً. وعندما يأخذ كلَّ ما ذُكر بعين الاعتبار يرى أنَّ لقبَ الحافظ هو لقبٌ أعلى من لقب الراوي والمحدّث.[35] وكلُّ واحدٍ من حفَّاظ الحديث السبعة الذين سُمي عصرهم باسمهم يحمل هذه الأوصاف.

وهناك مسألةٌ أُخرى ينبغي أن تُعرف ولا تُنسى وهي أنَّ كلَّ مَن يُعرف بالحافظ في تاريخ الحديث لا يشترط أن يكون بالدَّرجة نفسها في العلم، وأنَّ درجات الحفاظ تتفاوت فيما بينهم. فالذَّهبي في كتابه "الموقظة" الذي تحدّث فيه عن مصطلح الحديث أشار إلى تفاوت الحفاظ فيما بينهم، وذكر كبار حفاظ الحديث في كثير من الطبقات. فذكر من طبقة الصحابة أبا هريرة، ومن طبقة التابعين سعيد بن المسيّب، ومن طبقة أتباع التابعين الإمام مالك. ومن كبار حفَّاظ الحديث الذين ذَكر الذهبيُّ أسماءَهم أيضاً ابن المديني ثم البخاري والخمسة الآخرين من مؤلّفي الكتب الستة. ويرى أنَّ الذهبي قد ذكر ابن عدي وابن منده والبرقاني بين حفاظ القرن الرابع الهجري، وذكر البيهقيَّ وابنَ عبد البرـ من الحفاظ السبعة ـ من بين كبار الحفاظ في القرن الخامس الهجري.[36] وهذا يثير في العقل تساؤلًا وهو:

---

[34] يلماز أورنك، بتول، مصطلح الحافظ كلقب ومحور، (Ta'dil Lafzı ve Unvan Olarak Hafız Terimi) (جامعة مرمرة معهد العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير لم تطبع، إسطنبول، 2014)، ص 75.

[35] للتوسع في هذه النقطة انظر: يلماز أورنك، المرجع السابق، ص 81-100.

[36] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، الموقظة في علم مصطلح الحديث، (تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب، 1412)، ص 68-75.

"لماذا ذكر ابن الصلاح ومن بعده من كتَّاب علوم الحديث الدارقطني وتلامذته بدلاً من ابن عدي (ت976/365) وابن منده (ت1004/395) والبرقاني (ت1033/425)؟" ربما يكون السبب هو ما ذكره ابن الصلاح من كثرة وتنوع الكتب التي صنَّفها الدارقطني وطلبتُه الذين يُعدّون من حفَّاظ الحديث السبعة، وقد عبَّر ابن الصلاح عن هذا بقوله "أن يكون ممَّن كثُرت الاستفادة من مصنَّفاته". وبتعبير آخر يبدو أنَّ ابن الصلاح ومن بعده من علماء مصطلح الحديث قد استفادوا كثيراً من كُتب حفاظ الحديث السبعة وآثارهم. وهذا يدل على أنَّ آراء هؤلاء الحفاظ السبعة وأعمالهم قد عُدّت مِقياساً، وأنَّهم لم يكونوا مقتصرين على الرِّواية فقط، بل كان لهم باعٌ طويل في الدِّراية أيضاً.

وعندما نقيِّم من خلال مقدمة ابن الصلاح درجة تأثير حفاظ الحديث السبعة على المصادر الحديثية التي دُونت في العصر التالي نلاحظ ما يلي:

أشار ابن الصلاح إلى الدارقطني في مقدمته أكثر من عشرين مرة، وإلى الحاكم النيسابوري قرابة خمسين مرة، وإلى عبد الغني الأزدي في تسعة مواضع، وإلى أبي نعيم في أربعة مواضع، وإلى البيهقي في أربعة عشر موضعاً. أما الخطيب البغدادي فقد أشار ابن الصلاح إليه في قرابة ثمانين موضعاً. وهذا يبيّن أنَّ كُتب الخطيب البغدادي وآراءه كانت هي الأكثر تأثيراً وانتشاراً في العصور اللاحقة.[37] وقد عبَّر المحدِّث البغدادي الحنبليُّ ابن نقطة (ت1231/629) عن اعتماد المحدثين في العصور اللاحقة على كتب الخطيب البغدادي بشكلٍ بليغٍ، فقال: "أهل الحديث بعد الخطيب عالةٌ على كتب الخطيب."[38]

وجميع الحفاظ السبعة ينتمون إلى طبقة المتقدمين في علم الحديث؛ بل ويمكن أن يقال إنّ هذا الجيل هو خاتمة عصر المتقدّمين. فقد استمرَّت رواية الحديث بأسانيدها، كما استمرّت الرحلة من أجل تدوين الحديث في هذا العصر. وأصبحت الرحلة من أجل أخذ الإجازة الحديثية محدودةً؛ فقد ذكر ابن عساكر (ت1176/571) أنَّ تدوين الحديث انتهى مع الخطيب

---

[37] استفدنا في تثبيت المواضع التي أشار فيها ابن الصلاح إلى هؤلاء من برنامج المكتبة الشاملة.

[38] ابن نقطة، محمد بن عبد الغني البغدادي، إكمال الإكمال، (تحقيق: عبد القيوم عبد رب النبي، مكة، 1410)، 103/1.

البغدادي آخر حفَّاظ هذه الحُقبة، وعَرَّفَ الذهبي (ت748/1347) أيضاً الخطيبَ بأنَّه خاتمة حفَّاظ الحديث.[39]

ويرتبط الحدُّ الفاصل بين المتقدِّمين والمتأخِّرين في تاريخ العلوم بالسلطة التي نشأت لعلماء عهد المتقدمين وكتبِهم على المتأخرين من بعدهم. أما في علم الحديث فيرتبط إضافة إلى هذا باختلاف معاني المصطلحات عند المتأخرين، وتناقص الاهتمام بالإسناد حيث أصبحت الرحلة في طلب العلم لِجمع الإجازات بالكتب الحديثية، لا لجمع الروايات بأسانيدها.[40] ونرى في هذا السياق أنَّ الحفاظ السبعة جميعهم قد استمروا في رواية الأحاديث بأسانيدها، والتزموا بمنهج الرحلة في طلب العلم، باستثناء ابن عبد البر، فإنَّه لم يرحل في طلب العلم.

ومن الخصائص المهمَّة المشتركة بين الحفاظ السبعة هي أنَّهم أصحاب أسانيد عالية. وهذا لكثرة سفرهم في طلب العلم. فالدارقطني مثلاً تمكَّن من الحصول على أسانيد رباعية على الرُّغم من أنَّه كان يعيش في القرن الرابع الهجري. ومن أسانيده الرباعية "شيخه أبو القاسم البغوي (ت317/929)، عن طالوت بن عبَّاد (ت238/852)، عن فضَّال بن جُبير (ت161/777)، عن أبي أُمامة الباهلي (ت86/705)." وتمكَّن الدارقطني أيضاً من الرواية عن شُعبة (ت160/776) وسُفيان الثوري (ت161/777) بواسطة راويَين فقط.[41]

والحاكم أيضاً هو حافظ حصل على أسانيد عالية بسبب رحلاته للعراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر؛ ولهذا عرفه التاريخ باعتباره عالماً تُشدُّ إليه الرِّحال من كل أقطار العالم[42].

ومن النقاط الرئيسيَّة المشتركة بين حفَّاظ الحديث السبعة أنَّهم شافعيو المذهب ما عدا ابن عبد البر. وقام البيهقي بذكر الأدلة الحديثية للمذهب الشافعي في كتبه، وأكسب المذهب قوةً.[43]

39 ابن عساكر، تاريخ دمشق، 31/5؛ الذهبي، سير، 277/18.

40 بدر، مرتضى، المتقدمون والمتأخرون، (*DİA*, "Mütekaddimîn ve müteahhirîn") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 186/32-187.

41 الذهبي، سير، 460/16.

42 الذهبي، سير، 163/17؛ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، (تحقيق: محمود محمد الطناجي، 1313)، 157/4.

43 السبكي، طبقات الشافعية، 8/4-11.

وكان الحفَّاظ السبعة كلهم أشعريّ العقيدة، ماعدا الدارقطني الذي كان على عقيدة السلف. لكن هناك خلاف قويٌّ بين العلماء في الخطيب البغدادي، هل كان أشعرياً في معتقده أم كان سلفيَّ الاعتقاد؟[44] ويُذكر أيضاً أنَّ الخطيب كان يرى رأي السلف في صفات الله في بداية حياته، لكنَّه بعد ذلك تقارب في آرائه من علماء الكلام مثل شيخه أبي نُعيم.[45] والدليل الآخر على أنَّ الخطيب البغدادي قد تبنَّى مذهب الأشاعرة في العقيدة هو قول إسماعيل بن أبي الفضل القومساني أحد حفَّاظ الحديث في تلك الفترة (ت1103/497) "ثلاثة من الحافظ لا أحبهم لشدة تعصبهم، وقلة إنصافهم: الحاكم أبو عبد الله، وأبو نعيم الاصبهاني، وأبو بكر الخطيب". وقد علَّق ابن طاهر المقدسي على هذه العبارة بعد أن نقلها، فقال: "لقد صدق إسماعيل؛ فإن الحاكم كان متشيّعاً ظاهر التشيع والآخرين كانا يتعصبان للمتكلمين والأشاعرة".[46]

4. مساهمات الحفاظ السبعة في علوم الحديث

قال ابن الصلاح عن الحفَّاظ السبعة إنَّهم "أحسنوا التصنيف وعظم الانتفاع بتصانيفهم في أعصارهم"، وعند دراسة مؤلّفات هؤلاء العلماء نجد أنَّهم كانوا روّاداً في كثير من مجالات علوم الحديث. ومن ناحية أخرى أيضاً نرى أنهم قد دَوَّنوا مصنَّفات عظيمة وكثيرة توصف بأنَّها الأفضل في مجالها.

---

44 قال ابن عساكر والذهبي والسبكي أنَّ الخطيب البغدادي كان أشعرياً. انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، 40/5؛ الذهبي، سير، 277/18؛ السبكي، طبقات الشافعية، 32/4. وفي المقابل يذكر بعض محققو كتب الخطيب البغدادي المعاصرين أنه لم يكن أشعرياً بل كان على عقيدة السلف. انظر: الخطيب البغدادي، الفصل لوصل المدرج للنقل (تحقيق: محمد مطر الزهراني، الرياض، 1997/1417)، 39/1 (مقدمة الناشر)؛ الخطيب البغدادي، القول في علم النجوم (تحقيق: يوسف بن محمد سعيد، الرياض، 1999)، ص 34–36، (مقدمة الناشر)؛ عبد الله بن يوسف بن الجديع، "مسألة في الصفات"، مجلة الحكمة، 1، ليدز 1993/1414، ص 290.

45 كلج، يوسف، الخطيب البغدادي والسلطات العلمية التي استفاد منها ورواة الحديث، (el-Hatibu'l-Bağdâdî ve Yararlandığı İlim Otoriteleri ve Hadis Ravileri) إسطنبول، 1997، ص 43.

46 ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (بيروت، 1358)، 269/8؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام (تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، 2003)، 788/10.

ويُمكن أن نقيّم التطورات التي طرأت على علوم الحديث مع الحفَّاظ السبعة بخطوطها العريضة من خلال ما يلي:

أ. تطور التصنيف في الأحاديث المتعلِّقة بأركان الإيمان

إنَّ أسماء بعض الكتب وتراجم الأبواب فيما دُوّن في مجال الحديث في القرن الهجري الثالث وخصوصاً في صحيح البخاري هي إشارات رئيسيَّة تدل على قيام المحدثين بالبحث عن إجابات للمسائل والنقاشات الاعتقادية والكلامية انطلاقاً من الأحاديث الشريفة. واستمرَّ هذا الأسلوب في القرنين الرابع والخامس الهجريين مع استمرار النقاشات الاعتقادية، فصنَّف حفَّاظ الحديث مصنَّفات حديثية متنوعة في مواضيع الأُلوهية والنبوّة والآخرة.

فنقل الدارقطني في كتاب الصفات الذي صنَّفه في المسائل الاعتقادية ثمانية وستين حديثاً أكثرها وردت في الصحيحين، وأثبت صحة نسبة القَدم والوجه واليد والإصبع وغيرها إلى الله تعالى، ونقل كلام السلف بأنَّ الكيفية مجهولة.[47] وجمَعَ أدلة عقيدة السلف في "كتاب الرؤية" الذي جمع فيه أحاديث في رؤية الله عز وجل في الآخرة، وفي كتابه "أحاديث النزول" يجمع أحاديث نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا. وأسلوبه هذا يثبت أنه كان يتبنَّى رأي السلف. أما كتابه المسمى بـ "أخبار عمرو بن عُبيد" فموضوعه آراء عمرو بن عبيد (ت144/761) وهو أحد كِبار المعتزلة.[48]

ونلاحظ أيضاً وجود كتاب "صفة الجنة" لأبي نُعيم، وهو كتاب يتناول أحاديث في مواضيع الآخرة.[49]

والناظر إلى كتب البيهقي ("الأسماء والصفات"، و"شعب الإيمان"، و"الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد"، و"القضاء والقدر"، و"إثبات عذاب القبر"، و"حياة الأنبياء في قبورهم") يرى كأنَّ كتب الحديث قد صُنِّفت للردِّ

---

47 نشر كتاب الصفات من قبل علي بن محمد بن ناصر الفُقيهي (بيروت، 1983/1413) وعبد الله الغنيمان (المدينة، 1402). وكتابه في رؤية الباري موجود في مكتبة الإسكوريل 1445. انظر: سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، علوم القرآن والحديث، 420/1.

48 هذا الكتاب موجود في المكتبة الظاهرية في 106 (98A–106B) انظر: سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، علوم القرآن والحديث، 424/1.

49 نشر هذا الكتاب من قبل علي رضا عبد الله في مجلدين (دمشق، 1987/1407).

على المعتزلة.[50] ويُذكر أنَّ البيهقي هو عالم معروف قام بالردّ على المسائل الكلامية والفقهية مستدلّاً بالأحاديث في القرن الخامس الهجري.[51]

وصَنَّف كلٌّ من أبي نُعيم والبيهقي كتاباً مستقلاً حول معجزات النبي صلى الله عليه وسلم بعنوان "دلائل النبوة". ولِهذين المصنَّفين المتشابهَين من ناحية المحتوى والترتيب أهميةٌ كبيرةٌ في إثبات أدلة النبوة لدى المحدثين، وتشكيلهما مرجعاً للمؤرِّخين كابن كثير (ت1372/774) والسُّيوطي (ت1505/911).[52]

ب. التأليف في فقه الحديث

إنَّ الفترة التي عاش فيها الحفَّاظ السبعة في القرنين الرابع والخامس الهجريين هي مرحلةٌ استمرَّ فيها الجدل بين أهل الرأي وأهل الحديث. وفي هذه المرحلة كان أهل الرأي والمعتزلة يُسمّون المحدّثين بالحَشوية الذين يدورون بين المدن، ويجمعون كلَّ ما يجدونه تحت اسم الرّواية من دون تمييزٍ بين صحيحٍ أو ضعيفٍ. وكان المحدّثون في المقابل يعيبون على أهل الرأي أنهم أُنَاس لا يميّزون بين الأخبار الصحيحة والضعيفة، بل ويحفظون الآراء الخلافية ويتناقشون فيها.[53] وقد قام الدارقطني والبيهقي وابنِ عبد البر والخطيب البغدادي من الحفاظ السبعة بتصنيف كُتب مهمَّة جداً في فقه الحديث، وأكَّدوا في كتبهم هذه على أهميَّة المزج بين الفقه والحديث.

---

50 نشر كتاب الأسماء والصفات من قبل أحمد عماد الدين حيدر في مجلدين (بيروت، 1985/1405)، ونشر كتاب شعب الإيمان من قبل أبي هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول في تسع مجلدات (بيروت، 1990/1410)، ونشر كتاب الاعتقاد والهداية لكمال يوسف حوت (بيروت، 1985/1405)، ونشر كتاب القضاء والقدر من قبل محمد بن عبد الله آل عامر (الرياض، 2000/1420)، ونشر كتاب إثبات عذاب القبر من قبل مصطفى سعيد خالد (القاهرة، 1986/1407)، ونشر أيضاً من قبل شرف محمود القضاة (عمان، 1985/1405)، ونشر كتاب حياة الأنبياء في قبروهم من قبل أحمد بن عطية الغامدي (المدينة، 1993/1414).

51 أطمجه، ولي، (البيهقي هويته العلمية ومساهمته في علوم الحديث في التصنيف الموضوعي)، مجلة كلية الإلهيات في جامعة أتاتورك (Beyhaki, İlmî Hüvviyeti ve Hadis İlimlerinde Tür Edebiyatına Katkısı"), العدد 26، أرضروم 2006، ص 172.

52 ياووز، يوسف شوقي، " دلائل النبوة" (Delâilü'n-nübüvve", *DİA*) الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 9/117-118.

53 يوجَل، أحمد، تاريخ الحديث، (Hadis Tarihi) اسطنبول، 2012، ص 108-109

وكتاب السُّنن للدارقطني -وهو أشهر كتاب له في علم الحديث- يُعدّ كتاباً في العلل وفي فقه الحديث، وهو يختلف عن الكتب الأخرى التي ألفت تحت العنوان نفسه من قبل. فبينما كانت كتب السُّنن في السابق تُصنَّف لجمع الروايات التي يُحتجُّ بها ويُعمل بها، جاء كتاب الدارقطني على العكس من هذا ليشير إلى الروايات المعلولة. ويرى العالِم المعاصر عبد الفتاح أبو غُدة رحمه الله (ت1997/1417) الذي صنَّف كتاباً مستقلاً لبيانِ هذه الخاصّية التي تميّز بها كتاب السُنن للدارقطني أنَّه ينبغي أن يُسمى هذا الكتاب بالسُّنن المعلولة بدل السنن. وفي كتاب السنن هذا أحاديث مردودة وموضوعة بأعدادٍ كبيرةٍ. لكنْ من مُميزات هذا الكتاب أنَّ مصنفه رتّب الروايات المعلولة وفقاً للأبواب الفقهية.[54] وفي سنن الدارقطني مجموعة من الأخبار التي يَستدل بها الفقهاء أيضاً. لكنَّ المصنِّف ذكر هذه الأخبار في كتابه، وأثبت عِللها؛ وبهذا يكون قد اعترض على الفقهاء في استدلالهم بها.[55] واقترح فقهاً مبنيّاً على الأخبار الصحيحة، واعترض على الفقهاء الذين يحتجّون بالأخبار الضعيفة، وأظهر فقه أهل الحديث.

والبيهقي برز بهويّته الفقهيّة من بين الحفَّاظ السّبعة. ويَذكر إمام الحرمين الجُويني الذي كان معاصراً للبيهقي أنَّ "مَا من فقيه شَافِعِيّ إِلَّا وَللشَّافِعِيّ فِي عُنُقه منَّة إِلَّا أبا بكر الْبَيْهَقِيّ، فإن المنة له على الشافعي لتصانيفه في نصرة مذهبه."[56] فالبيهقي أيَّد الفقه الشافعي بالأحاديث في جزء كبير من مؤلّفاته، بل وأوضح بالأدلَّة أنَّ المذهب الشافعي هو الأنسبُ والأرجح على باقي المذاهب.[57] وعرَّف السُّبكيُّ (ت.1370/771) مؤلِّفُ طبقات الشافعية البيهقيَّ "فَقِيه جليل حَافظ كَبير أصولي نحرير زاهد ورع قَانِت لله قَائِم بنصرة الْمَذْهَب أصولاً وفروعاً" وقد أشرنا سابقاً إلى أنَّ البيهقيَّ كان من العلماء في القرن الخامس الهجري خاصة في مجال الإجابة على المسائل الفقهية والكلامية بالأحاديث الشريفة. وأهم كُتبه التي صنَّفها في فقه الحديث هي كتابه "السنن الكبرى" الذي يُعطي فيه

---

[54] أبو غدة، عبد الفتاح، "السنة النبوية ومدلولها الشرعي والتعريف بحال سنن الدارقطني" (ترجمة: أنبياء يلدرم،) عدد 5، كانون الثاني-حزيران، 2006، ص 93-94.

[55] الرحيلي، الدارقطني، ص 257.

[56] السبكي، طبقات الشافعية، 10/4.

[57] ينظر في هذا الخصوص: أطمجة، المصدر السابق، ص 157-174، 171-172.

الأولَيَّة للفقه الشافعي، وكتابه "معرفة السنن والآثار" الذي يحتوي على الأحاديث المؤيّدة للفقه الشافعي أيضاً. وكذلك يُمكن أن نذكر في هذا السياق كتابه "السنن الصغرى"، وكتابه "القراءة خلف الإمام" على أنَّهما مصنَّفان في فقه الحديث.[58]

وتميّز الخطيب البغدادي الذي عاش في الطبقة الثانية من الحفاظ السبعة وكان آخرهم وفاةً بتشجيعه المحدّثين على تعلُّم الفقه. ونبَّه طلبةَ الحديث على التقليل من الرواية، وأكد على أهميَّة فهم فقه الأحاديث الشريفة في كتابه "الفقيه والمتفقه"، و"نصيحة أهل الحديث"، و"شرف أصحاب الحديث". وكتاب "الفقيه والمتفقه" يُعدُّ من مصادر أصول الفقه عند الشافعية. وللخطيب البغدادي أيضاً كتاب من جُزأين في المباحث الفقهية وِفق المذهب الشافعي عنوانه "الجهر في البسملة".[59]

ت. تأليف المصنفات في مصطلح الحديث

إنَّ العهد الذي يُسمّى مرحلة الحفاظ السبعة والذي استمرَّ قرناً ونصف قرنٍ هو فترة بدأ فيها تدوين المصنَّفات الأولى في مصطلح الحديث أيضاً.

وكتابا الدارقطني "تصحيف المحدّثين" و"المدبَّج" هما كتابان صنَّفهما حول مصطلحَين من مُصطلحات الحديث.[60]

ولكتاب "معرفة علوم الحديث" للحاكم أهميَّة كبيرة جداً بين المصنَّفات الأولى في علم مصطلح الحديث؛ بل ولعلَّه أوّل كتاب ذكرت فيه المصطلحات الحديثية بشكلٍ منتظم. وكتاب "المدخل إلى كتاب

58 السنن الكبرى، نشر كتاب السنن الكبرى في عشرة مجلدات مع كتاب جوهر النقي لابن التركماني الذي كتبه في الرد على هذا الكتاب (حيدر آباد، 1355/1344) ونشر كتاب معرفة السنن والآثار من قبل عبد المعطي أمين قلعجي في خمسة عشر مجلداً (كراتشي، 1991/1412)؛ ونشر كتاب السنن الصغرى من قبل محمد ضياء الرحمن الأعظمي في تسع مجلدات تحت عنوان "المنة الكبرى شرح وتخريج السنن الصغرى" (الرياض، 2001/1422)؛ ونشر كتاب القراءة خلف الإمام من قبل محمد بن سعيد بسيوني زغلول (بيروت، 1984/1405).

59 نشر كتاب الفقيه والمتفقه من قبل عادل بن يوسف الغرزي (الرياض، 1996/1417)، ونشر كتاب نصيحة أهل الحديث من قبل عبد الكريم بن أحمد الوريقات (الأردن، 1988/1408)؛ ونشر كتاب شرف أصحاب الحديث م. سعيد خطيب أوغلو (أنقرة، 1917)؛ واختصر كتابه الجهر في البسملة على يد الذهبي، ثم نشر هذا المختصر من قبل علي بن أحمد الكندي (بيروت، 1426).

60 انظر: ابن خير، أبو بكر محمد الإشبيلي، فهرسة، (بيروت، 1998/1419)، ص 186.

الإكليل" الذي دونه المؤلّف هو أيضاً من أُولى الكتب التي ذكرت فيها بعض المواضيع حول مصطلحات الحديث.[61] وما دوَّنه الأزْدي في تصحيح بعض الأخطاء الموجودة في هذا الكتاب تحت عنوان "كشف الأوهام" يُعدُّ أيضاً من بين كُتب المصطلح التي دُوِّنت في هذه المرحلة.[62]

وقد قام أبو نعيم بتصنيفٍ لمستخرج على الروايات الموجودة في كتاب "معرفة علوم الحديث" للحاكم.[63] وكتب الخطيب البغدادي "تقييد العلم"، و"الرحلة في طلب العلم"، و"الفصل للوصل"، و"الإجازة للمعدوم" هي كتب مهمَّة أيضاً دُوِّنت في هذا العصر حول علم رواية الحديث الشريف. أما كتاب "الكفاية في علم الرواية" للخطيب فهو كتاب يتحدث عن علوم الحديث ومصطلحاته، ويذكر كثيراً من مسائل الحديث ومصطلحاته لم تُذكر في كتب علوم الحديث السابقة من قبل.[64]

وهذه الأمثلة التي ذكرناها تُبيّن أنَّ التأليف في مجال مصطلح الحديث بشكلٍ خاصٍ قد بدأ مع الحفَّاظ السبعة، وصُنفت كتب عامة عظيمة تجمع الكثير من مسائل الحديث، كما صُنفت رسائل وأجزاء متنوعة في مواضيع مستقلّة في علم مصطلح الحديث.

وكتاب عِلل الحديث للدارقطني يُعد حلقة مهمَّة في الدراسات الحديثية باعتباره عملاً يُبرهن على الشخصية النَّاقدة لمؤلِّفه. وقد ذكر ابن الصّلاح وابن كثير أنَّ أفضل كتاب دُوّن في علل الحديث هو كتاب العلل للدارقطني،[65] أما البلقينيُّ (ت1402/805) والسَّخاوي (ت1496/902)

---

61 نشر كتاب معرفة علوم الحديث من قبل فريق (بيروت، 1980/1400)؛ ونشر كتاب المدخل من قبل فؤاد عبد المنعم أحمد (الإسكندرية، بلا تاريخ).

62 نشر كتاب الأوهام الذي في مدخل أبي عبد الله الحاكم من قبل مشهور حسن محمود سلمان (الأردن، 1407).

63 الكتاني، محمد بن جعفر، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، (تحقيق: محمد المنتصر، بيروت، 1993/1414)؛ ص 143.

64 نشر كتاب تقييد العلم من قبل يوسف العش (دمشق، 1949)؛ ونشر كتاب الرحلة من قبل صبحي السامرائي (المدينة المنورة، 1969/1389)، ونشر أيضاً من قبل نور الدين عتر (بيروت، 1975/1395)، ونشر كتاب الفصل للوصل من قبل محمد مطر الزهراني (الرياض، 1997/1418)، ونشر كتاب الإجازة من قبل صبحي السامرائي (المدينة، 1969/1389)، ونشر أيضاً من قبل نصر بن أبو عطا (الرياض، 1994/1415).

65 ابن الصلاح، علوم الحديث، ص 153؛ ابن كثير، اختصار، ص 53. نشر كتاب العلل للدارقطني من قبل محفوظ الرحمن زين الله السلفي بعنوان العلل الواردة في

فيرَيان أنَّ كتاب العلل للدارقطني هو أجمع كتاب في العلل.[66] وكانت كتب العلل قبل الدارقطني تركِّز على علم الرجال، لكنَّ عملَ الدارقطني في كتابه العلل كان أشمل حيث ذَكرَ طرق الأحاديث بأعداد أكبر، وركَّز على أسانيد الأحاديث ومُتونها.[67] ومن ناحية أخرى يُعد كتاب العلل للدارقطني الحلقة الأخيرة من مؤلَّفات العلل في العهد المتقدمين الذي يبدأ بما ألَّفه يحيى بن سعيد القطَّان.[68]

ث. تطورات التصنيف في علم الرجال

يُلاحَظ ظهور نوع جديد في التأليف في مجال علوم الحديث في عصر الحفاظ السبعة، يعبَّر عنه بمصطلح "المؤتَلف والمُختلف" وموضوعه أن تتفق الأسماء أو الألقاب أو الكنى أو الأنساب خطًّا، وتختلف لفظًا. ويُقال إنَّ أوّلَ من صنَّف في هذا الفنِّ هو الأزْدي تلميذ الدارقطني، وبعد هذا كتب الدارقطني كتابه "المؤتلف والمختلف".[69] وبهذا يكون مجال المؤتلف والمختلف الذي صُنف في أسماء القبائل العربية من قبل[70] قد نُقل إلى مجال الحديث مع الأزدي أولاً، ثمَّ مع أستاذه الدارقطني.[71] ووسَّع الخطيب البغدادي هذا الكتاب تحت عنوان "المؤتنِف في تكملة المختلف والمؤتلف". وصنَّف الخطيب البغدادي أيضاً في علم الرجال كتاباً اسمه "المتفق والمفترق" عرَّف فيه من اتفقت من الرواة أسماؤهم وأسماء آبائهم خطًّا ولفظًا، واختلفت أشخاصهم.[72]

الأحاديث النبوية، (الرياض، 1985/1405).

66 البلقيني، عمر بن رسلان، محاسن الاصطلاح، (تحقيق: عائشة عبد الرحمن، القاهرة، دار المعارف(، ص 268؛ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، فتح المغيث شرح ألفية الحديث، (لبنان، 1403)، 310/3.

67 لمقارنات تفصيلية أكثر انظر: الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر، العلل الواردة في الأحاديث النبوية (تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله السلفي) الرياض، 1985/1405، 103/1–131 (مقدمة الناشر).

68 قره كوزأوغلي، م. ماجد، علل الحديث، (*DİA*, "İlelü'l-hadis") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 84/22–86.

69 ابن نقطة، إكمال الإكمال، 96/1؛ السخاوي، فتح المغيث، 229/4.

70 صندقجي، كمال، المؤتلف والمختلف، (*DİA*, "el-Mü'telif ve'l-muhtelif") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 191/32.

71 نشر الكتاب من قبل موفق بن عبد الله (بيروت، 1986/1406).

72 ذكر كتاب المؤتنف في بعض الأماكن باسم المؤتلف وذكر في أماكن أخرى باسم ذيل المؤتلف، توجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة برلين (nr. 10157). انظر:

ويلاحظ أيضاً في عهد الحفاظ السبعة أنَّه قد بدأ التصنيف في موضوع المشتبه كساحة أخرى في علوم الحديث تدرس المسائل المتعلّقة بقراءة أسماء الرواة. فكتاب "مشتبه النسبة" لعبد الغني الأزدي هو من أوائل الكتب التي صُنفت في هذا الموضوع.[73] أما كتاب "تلخيص المتشابه" للخطيب البغدادي فيُوصَف بأنَّه من أجمل الكتب التي صُنفت في هذا الموضوع.[74] وقد صنَّف الخطيب البغدادي أيضاً كتابه "غنية الملتمس" في الرواة الذين اختلط بعضهم ببعض.[75]

ونرى في هذه المرحلة أيضاً أنَّ الخطيب البغدادي قد أضاف إلى كتب الحديث في موضوع الإسناد اصطلاح "السَّابق واللاحق"، وهو أوّل من استخدم هذا المصطلح. وهو عبارة عمن اشترك في الرواية عنه متقدم ومتأخر تباين وقت وفاتيهما تبايناً شديداً فترة ستين سنة على الأقل. وقد دَوّن الخطيب البغدادي كتاباً مستقلاً بعنوان "السابق واللاحق"، كما أنه أضاف هذا الاصطلاح إلى علوم الحديث.[76]

وفي موضوع التدوين في عهد الحفاظ السبعة حول ضعفاء الرجال نجد أن هذا العهد قد ظهرت فيه مصنَّفات موسوعيَّة تفصيلية ومنتظمة مثل ما كتبه العُقيلي وابن عَدي، كما ظهرت مؤلَّفات متوسطة الحجم في أواسط عهد ابن الجوزي ومن بعده. وصنّف كلٌّ من الدارقطني والحاكم وأبو نعيم من الحفاظ السبعة كتباً في الضُّعفاء؛ لكنَّ هذه المصنفات كانت

الكتاني، الرسالة المستطرفة، Hadis Literatürü (ترجمة وزيادات يوسف اوزبك)، إسطنبول 1994، ص 239 (ملاحظة المترجم). أما كتاب المتفق فقد نشر من قبل محمد صادق آيدن (دمشق، 1997/1417).

73 طبع كتاب المشتبه مع كتاب المؤتلف لنفس المؤلف بتحقيق محمد الجعفري الزيني (الله آباد، 1327).

74 صندقجي كمال - تكنش، آيهان، "المتشابه"، (*DİA*, "Müştebih") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية 32/170-171. التلخيص نشر من قبل سُكينة الشهابي (دمشق، 1985/1405).

75 نشر بتحقيق نظر محمد فريابي (الكويت، 1992/1413)، ونشر أيضاً بتحقيق يحيى بن عبد الله البكري (الرياض، 2001/1422).

76 صندقجي، كمال، السابق واللاحق، (*DİA*, "Sâbık ve lâhik") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية ، 137/35. نشر كتاب السابق واللاحق بتحقيق محمد مطر الزهراني (الرياض، 2000/1421).

صغيرة الحجم، فاعتُبرت مساهماتها بين كتب الضعفاء متواضعة.[77] وقد أشارت المصنفات التي دُوّنت في القرون التالية مثل "ميزان الاعتدال"، و"لسان الميزان"، و"تهذيب الكمال" بشكلٍ متكررٍ إلى الدارقطني على وجه الخصوص لِدرايته في معرفة الرجال، ولأنَّ كتابه الضُّعفاء لم يكن كتابه الوحيد الذي يحتوي على نقد الرجال؛ بل ذكر كثيراً في أحوال الرجال في كتابيه "العلل" و"السنن."[78]

وكتاب "الغوامض والمبهمات" الذي صنَّفه عبد الغني الأزدي من الحفاظ السبعة حول الرواة المبهمين في متون الأحاديث وأسانيدها هو أوّل كتاب دُوِّن في هذا المجال.[79] وبعد هذا قام الخطيب البغدادي بتدوين كتابه "الأسماء المبهمة" في نفس الموضوع.[80]

والمصنَّفات المتعلقة بطبقة الصحابة هي من الآثار المهمّة التي دونت في عهد الحفاظ السبعة في موضوع الرجال، وشكلت مرجعاً للعصور اللاحقة. فالحاكم النيسابوري هو أوَّل مؤلِّفٍ دوّن معرفة الصحابة ضمن مواضيع علوم الحديث. وأما كتاب "معرفة الصحابة" لأبي نُعيم الأصفهاني فقد عُرّف بأنَّه أكبر مصنف في هذا الموضوع ممَّا وصل إلينا، وهو مصدر لِما كُتب بعده في طبقة الصحابة.[81] وكذلك كتاب "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البرِّ هو ممَّا صنف في هذه المرحلة.

---

77 وفي هذا الخصوص ينظر: قره كوز أوغلي، م. ماجد، الرواة الضعفاء وأدب الضعفاء والروايات الضعيفة، (Zayıf Raviler Duafa Literatürü ve Zayıf Rivayetler) (إسطنبول، 2014)، ص 143–160.

78 الدارقطني، الضعفاء والمتروكون، (تحقيق عبد الرحمن محمد القشيري، المدينة، 1403)، ص 248، (مقدمة الناشر).

79 في هذا الخصوص ينظر: بوينوكالن، عمر، كتاب الحافظ عبد الغني الأزدي المسمى الغوامض والمبهمات، (Hafız Abdülğani el-Ezdî'nin el-Ğavâmız ve'l-Mübhemat Adlı Eseri) (جامعة مرمرة معهد العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير لم تطبع، إسطنبول، 1991) ونشر الكتاب أيضاً من قبل حمزة أبو الفتح بن حسين (جدة، 1421/2000).

80 عاشق قُطلي، أمين، مبهم، (*DİA*, "Mübhem") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 31/436–437. ونشر كتاب الخطيب أيضاً من قبل عز الدين علي سيد (القاهرة، 1405/1984).

81 أفندي أوغلي، محمد، معرفة الصحابة، (*DİA*, "Ma'rifetü's-sahâbe") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية ، 38/60–61.

وكتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نُعيم الذي كتبه في سيَر الزُّهاد والصُّوفية يعكس الجانب الصوفي للمؤلّف، كما أنَّه يثبت تميزه عن بقية الصوفية، حيث يبدأ كثيرٌ من كتَّاب طبقات الصوفية وعلى رأسهم السُّلمي (ت412/1021) كتبهم بحياة إبراهيم بن أدهم؛ أما أبو نُعيم فبدأ كتابه بالصحابة. ويمكن أن يُفسر هذا بأنَّه مزَج في شخصية الهوية الصوفية بالهوية الحديثية. لكنَّ كتابه هذا لم يسلمْ من الانتقادات بسبب احتوائه على أخبارٍ ضعيفة وموضوعة. وعلى الرّغم من هذا فقد وُجد من يشتريه بأربعمئة دينار في العصر الذي دون فيه، ووصفَه مادحوه بأنَّه كتاب لا مثيل له.[82]

ج. التأليف في تاريخ المدن

بدأ التصنيف في تاريخ المدن في العهد الإسلامي في فترة مبكرة؛ فعندما ننظر إلى كتاب "فضائل مكة" للحسن البصري (ت110/728) يُمكن أن نقول إنَّ التأليف في هذا المجال قد بدأ في عصر التابعين. ومن أوائل ما كُتب في تاريخ المدن بعد ذلك كتاب "تاريخ الأندلس" لعبد الملك بن حبيب السُلمي (ت238/852)، وكتاب "أخبار مكة" للأزرقي (ت250/864) وكتاب "تاريخ المدينة المنورة" لابن شبَّة (ت262/875).[83] ومع كتاب "تاريخ واسط" للمحدث الواسطي أسلم بن سهل الملقب بِبَحشل (ت292/904) ظهر منهجه حيث ابتدأ بذكر الصحابة والعلماء الذين قدِموا إلى واسط.[84] ومن أهمِّ ما كتب في تاريخ المدن وفق هذا المنهج كتاب "تاريخ نيسابور" للحاكم، وكتاب "تاريخ أصفهان" لأبي نعيم، وكتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي، وهي كتبٌ مشهورة. وهكذا نستطيع أن نقول إنَّ ثلاثة من الحفاظ السبعة قد كتبوا في تاريخ المدن. وقد تطور مع هؤلاء المصنِّفين الثلاثة منهج كتابة تاريخ المدن الذي ابتُدئ به في القرن الثالث الهجري، من خلال ذِكر من عاش في كل بلد.

---

82 تُرَر، عثمان، حلية الأولياء، (*DİA*, "Hilyetü'l-evliya") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 38/51-52.

83 للتوسع في أوائل الكتب لتي صنفت في تاريخ المدن ينظر: مصطفى فائدة "أوائل تواريخ المدن في العالم الإسلامي وكتاب المدينة المنورة لابن شبة" (İslam Dünyasında İlk Şehir Tarihleri ve İbn Şebbe'nin Medine-i Münevvere Tarihi") مجلة كلية الإلهيات جامعة أنقرة، مجلد 28، أنقرة 1986، ص 167-180.

84 العمري، أكرم ضياء، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، بيروت، ص 199.

ح. استمرار عمليَّة التصنيف

كان القرن الهجري الثالث عصراً ذهبيّاً للتصنيف، فهو عصرٌ دُوِّنت فيه أفضل المؤلّفات. أما فترة القرنين الرابع والخامس الهجريين فتُعتبر آخر مرحلة الرواية مع أننا نرى الكثير من الكتب قد دُوِّنت في هذه المرحلة كمستدركات على ما كُتِبَ في مرحلة التصنيف. ولهذا يمكن القول إنَّ الحفاظ السبعة هم آخر ممثلي عصر الرواية؛ إذ قد استمروا في نقل الروايات بأسانيدها التي وصلت إليهم من ناحية، وقدَّموا من ناحية أخرى مؤلَّفات مكمِّلة لما دُوّن في عهد التصنيف.

فمن مصنّفات هذا العصر كتاب "السنن" للدارقطني الذي جمع فيه الروايات المختلفة المتعلقة بأحاديث الأحكام، وكتاب "المستدرك" للحاكم الذي كتبه استدراكاً على الصحيحين، وكتاب "الإكليل" للحاكم أيضاً الذي جمع فيه الأحاديث المتعلقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته، وكتاب "صفة الجنة" لأبي نعيم الذي جمع فيه الأحاديث المتعلقة بالجنة، وكتاب "طب النبي" له أيضاً الذي ذكر فيه الأحاديث المتعلقة بالطب النبوي، وكتاب "جامع أدعية النبي" له أيضاً، وكتاب "جامع بيان العلم" لابن عبد البر الذي ذكر فيه الأحاديث المرفوعة والموقوفة والمقطوعة المتعلّقة بفضائل العلم والمبادئ التي ينبغي أن تُراعى في مرحلة التعلُّم والتعليم.

والبيهقي بكتبه "السنن الكبرى" و"معرفة السنن والآثار" و"فضائل الأوقات" و"الآداب" و"الدعوات" هو أهم ممثلي القرن الخامس الهجري الذي يحمل خصائص عهد التصنيف وعهد الجمع في آنٍ واحدٍ، وهو مِن أندر المحدثين الذين رحلوا في طلب الحديث في القرن الهجري الخامس. ولعلَّ هذا هو سبب وجود روايات كثيرة في كتب البيهقي لم ترِد في كتب من سبقه.[85]

وفي هذا العهد قلّ عدد المصنفات الجديدة، وازداد التأليف في كتب الفوائد التي بدأت تظهر في العصور المبكِّرة. ويُذكر أن للدارقطني ستة عشر كتاباً في الفوائد في مجال جمع غرائب بعض المحدثين ونوادرهم.

[85] انظر: أطمجة، المصدر السابق، ص 172.

وقد دَوَّن الأَزْدي والحاكم في الفوائد كما أنَّ الخطيب البغدادي له أيضاً كتاب في الفوائد عنوانه "الفوائد المنتخبة".[86]

وعندما ننظر إلى القرنين الهجريين الرابع والخامس من ناحية تأليف المصادر الحديثية لا نستطيع أن نقول إنَّ هذه المرحلة كانت مرحلة نشطةً مثل القرن الهجري الثالث؛ ولكن يُمكن أن يُقال إنَّ هذا العصر كان غنياً ومتنوّعاً من ناحية تأليف الكتب التي تُجمع فيها الأحاديث في مواضيع محددة بشكلٍ خاصٍ. ومن المراجع الحديثية الرئيسية التي دُونت في هذا العصر إضافة إلى ما كتبه الحفاظ السبعة ما كتبه الطبراني وابن حبان وابن خزيمة. ولكنَّ هؤلاء العلماء هم أقرب إلى عصر الرواية من الحفاظ السبعة بجيل واحد. وهكذا فتأليف المصنّفات التي ينقل فيها كلُّ حديث بإسناده أخذ يتناقص شيئاً فشيئاً، لكنَّه لم يكن قد انقطع بعدُ. وفي هذا السياق يُمكن أن نعتبر الحفاظ السبعة آخر من يمثِّل عصر الرواية.

خ. كتب الزَّوائد والنَّقد

لقد ترك الدارقطني أحد الحفَّاظ السبعة وشيخُ الحفاظ الستة الآخرين أثراً واضحاً ولافتاً في عصره الذي عاش فيه، فكانت له مصنفاتٌ كثيرة على الصحيحين بشكلٍ خاصٍ. فكتابه "الإلزامات" التي جمع فيه ما وجده من الأحاديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه في صحيحيهما، وكتابه "التَّتبُّع" الذي تتبّع فيه أحاديث الصحيحين لبيان الأحاديث المعلولة التي يرى أنها نزلت عن شرطهما، وقد بلغت هذه الأحاديث المنتقدة 218 حديثاً.

وللدارقطني أربعة كتب في رجال الصحيحين؛ أحدها "رجال البخاري ومسلم". ومنها "ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايتهم عند البخاري ومسلم" والآخر هو "أسماء الصحابة التي اتَّفق فيها البخاري ومسلم وما انفرد به كلٌّ منهما".[87] فأحد هذه الكتب يتحدث عن رواة

---

86 الفوائد المنتخبة، نشر من قبل سعود ين عبد بن عمير (المدينة، 2002/1422).

87 لمزيد من المعلومات ينظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، علوم القرآن والحديث، 422/1 وكتاب رجال البخاري ومسلم موجود في مكتبة آصَفِية في حيدر آباد (رجال 172)، وكتاب أسماء الصحابة موجود في القاهرة (الرقم العام: 108، 18/8)، أما كتب ذكر أسماء التابعين فقد نشر من قبل لروان الدناوي وكمال يوسف الحوت (بيروت، 1985/1406).

الصحيحين من الصحابة، والثاني يذكر الرواة من التابعين ومن بعدهم، والثالث يشمل جميع رجال الصحيحين، فيشمل الكتابَين الأول والثّاني. والكتاب الرابع الذي صنَّفه الدارقطني في رجال الصحيحين الذين قال النسائي بضعفهم في كتابه "الضّعفاء". ويمكن القولُ بأنَّ هذا الكتاب هو كتاب رائدٌ في فنِّ الجرح والتعديل. وهذا المصنف الصغير الذي يتكون من أربع ورقات والذي كتبه الدارقطني من خلال أجوبته على أسئلة تلميذه أبي عبد الله بن بُكير يوثّق كثيراً من رجال الصحيحين الذين ضعّفهم النسائي. فيُمكن أن يقال إنَّ هذه الرسالة هي عبارة عن عملٍ في الدفاع عن الصحيحين.[88] ويُقال أيضاً إنّ الدارقطني هو أوَّل عالم صنَّف في التعريف برجال الصحيحين في كتاب واحدٍ.[89]

وممَّا صُنف حول الصحيحين في هذه المرحلة كتاب "المستدرك" المشهور الذي ألفه الحاكم. ويَذكر الحاكم أنه صَنّف كتابه هذا في الرَّدِّ على المبتدعة الذين ضعَّفوا كثيراً من الأحاديث، وزعموا أنها لا أساس لها من الصّحة. وأراد في كتابه هذا جمع الأحاديث التي لم تُذكر في الصحيحين مع أنَّها على شروطهما؛ ولكن وُجّهت للمؤلِّف انتقادات بسبب تساهله في تصحيح الأحاديث.[90] وقد صَنّف المؤلّف كتاباً آخر للتعريف بكتاب المستدرك وبالصحيحين، عنوانه "المدخل إلى معرفة الصحيحين".

وكلٌّ من كتاب "الإلزامات" للدارقطني وكتاب "المستدرك" للحاكم يتَّصفان بأنَّهما مكمّلان، ومتمِّمان للصحيحين.

---

88 رسالة الدارقطني مسجلة في مكتبة السلطان أحمد الثالث في قصر طوب كابي رقم 21/624، (253A–253B). ينظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، علوم القرآن والحديث، 422/1.وقد نشرت هذه الرسالة من قبل علي حسن علي عبد الحميد بعنوان سؤالات عبد الله بن بكير وغيره للدارقطني، (عمان، 1988/1804). ينظر أيضاً: الرُحيلي، الدارقطني، ص 157–200.

89 العمري، أكرم ضياء بحوث في تاريخ السنة، ص 125.

90 فيما يخص مستدرك الحاكم ينظر: إبراهيم تُوزلو، مكانة الكتب المعنونة بالمستدرك في أدبيات الحديث ومستدرك الحاكم، (Hadis Edebiyatında Müstedreklerin Yeri ve el-Hâkim'in Müstedrek'i)، جامعة أولوداغ، رسالة ماجستير لم تطبع، بورصة، (1994)؛ عثمان كُنر، دراسة عامة حول الحاكم النيسابوري والمستدرك، "Hâkim en-Nîsâbûrî ve Müstedrek Üzerine Genel Bir Değerlendirme", مجلة الإلهيات في جامعة أون دوكوز مايس، العدد: 10، سامسون 1998، ص 141–158؛ خطيب أوغلي، إبراهيم، مستدرك، ("Müstedrek", *DİA*)، 32/133–135.

ويُلاحظ أيضاً أنَّ الحفاظ السبعة في هذا العصر قد كتبوا عدة مصنَّفات حول الموطأ. فكتاب الدارقطني" أحاديث الموطأ واتّفاق الرواة عن مالك واختلافهم زيادةً ونقصاناً" يُعد مصنَّفاً في نقد المتن، يدرس الاختلافات الواقعة في متون الموطّأ. أما كتاب "غرائب مالك" الذي لا يُعرف وصوله إلينا والذي ينسب للدارقطني فهو يتكَّون من الأحاديث التي نُقلت عن مالك، لكنَّها غير مُدونة في الموطأ. ولا شكَّ أنَّ ابن عبد البر هو الاسم الأشهر بين الحفاظ السبعة بما كتبه حول موطأ مالك؛ فكتابه "التمهيد" الذي شرح فيه أحاديث الموطأ المرفوعة، وكتابه "الاستذكار" الذي شرح فيه الأخبار الموقوفة والمقطوعة في الموطأ، وكتابه "الزيادات" الذي جمع فيه روايات مالك التي لم ترد في رواية يحيى بن يحيى، هي كتب لها مكانة مهمّة بين المدونات الحديث الشريف.

الخاتمة

قدَّم ابن الصَّلاح ومن بعده في كتبهم في علوم الحديث ضمن تواريخ الرواة تسلسلاً تاريخياً يشكّل في بعض جوانبه بذرة لدراسات تاريخ الحديث الشريف. فكتبوا علم تواريخ الرواة من خلال تقسيمه إلى مراحل زمنية، والمرحلة الرابعة من هذه المراحل هي مرحلة مؤلّفي الكتب الخمسة أو الكتب الستة، وتحدثوا في المرحلة الخامسة التي تليها عن الحفاظ السبعة. وهكذا جاءت المرحلة الزمنية التي امتدت قرناً ونصفَ قرنٍ بعد مرحلة الكتب الستة التي تعد العصر الذهبي في تاريخ الحديث، وسميت هذه المرحلة بعهد الحفاظ السبعة. وهذه المرحلة مهمة للاطلاع على تطورات علم الحديث بعد انتهاء عصره الذَّهبي.

والمحدِّثون الذين يُطلق عليهم لقب الحفاظ السبعة هم: الدارقطني، والحاكم النيسابوري، وعبد الغني الأزدي، وأبو نُعيم الأصفهاني، وابن عبد البر، والبيهقي، والخطيب البغدادي. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الرقعة الجغرافية التي عاش فيها الحفاظ السبعة المذكورون نرى أنهم انتشروا في مساحة جغرافيَّة تمتد من نيسابور إلى قرطبة، وعلى الرغم من هذا كانت تربط بينهم علاقة التلميذ والشيخ. والدارقطني هو شيخهم جميعاً، ويقول بعض علماء الحديث عن هذا العصر أنه "عصر الدارقطني". وبهذا الاعتبار

يمكن أن يقال عن الحفاظ السبعة أنهم من مدرسة الدارقطني كما نسمي أئمة الكتب الستة بمدرسة البخاري. والخطيب البغدادي هو آخر الأئمة السبعة وفاةً، ويرى المحدثون أنَّ عصر تدوين الحديث قد انتهى بوفاته، وأنَّه خاتمة الحفاظ. وجميع هذه التقييمات تدعم إمكانية اعتبار العصر الذي يبدأ بالدارقطني وينتهي بالخطيب البغدادي عصراً مستقلاً في تاريخ الحديث الشريف.

وعلى الرُّغم من أنَّ كثيراً من المحدثين وحفاظ الحديث قد عاشوا في القرنين الهجري الرابع والخامس إلا أنَّ ابن الصَّلاح ومن بعده من علماء أصول الحديث كانت استفادتهم من مؤلفات الحفاظ السبعة وكتبهم أكثر بالمقارنة مع غيرهم من الحفاظ. فكل واحد من الحفاظ السبعة يُعد مقدماً في آرائه وتطبيقاته، إذ لم يكونوا منشغلين بالرواية فقط، بل كان لهم باعٌ طويل بالدراية أيضاً.

وقد دُوِّنت كتب المتقدِّمين الأساسية في أصول الحديث في هذا العصر، كما ظهرت أول الكتب التي تتحدث عن "المؤتلف والمختلف" و"السابق واللاحق" و"الرواة المبهمين". وقد صُنف في هذا العهد أيضاً كثير من المصنفات التي تروى فيها الأحاديث بإسنادها.

وكانت هذه المرحلة الزمنية نشطة جداً من ناحية الصراعات السياسية والفكرية، لكن الصراعات السياسية لم تمنع شيئاً من الدراسات العلمية. فقد واجه المحدّثون بعض المصاعب لِعدة أسباب سياسية ومذهبية، لكنَّهم مع هذا تمكنوا من إنشاء حركة نشاطٍ علميٍ وافرٍ ومعطاءٍ. ويلاحظ أن الصراعات المذهبية بشكلٍ خاصٍ قد سرّعتْ تأليفَ المصنفات الحديثية في المواضيع الاعتقادية. وأكد المحدثون على أهمية دمج الفقه بالحديث في جدل أهل الحديث وأهل الرأي، وأكسبوا أهل الحديث قوة بمؤلفاتهم التي كانت تهدف إلى إثبات الأدلة الحديثية للأحكام الفقهية. وعندما نقيِّم الحفاظ السبعة في هذا السياق نرى أنَّهم كانوا جميعاً شافعية ما عدا ابن عبد البرّ، وأنَّهم كانوا في العقيدة على مذهب الأشاعرة إلا الدارقطني، فكان على مذهب السلف. ولعلَّ هذا سُيؤسس قاعدة لتقوية علوم الحديث في القرون اللاحقة على يد الشافعية دائماً.

إن عهد الحفاظ السبعة في تاريخ الحديث هو جزء من عصر المتقدمين، يُشبه العصور الثلاثة الأولى من ناحية الرواية بالإسناد والرحلة من أجل التدوين والإجازات. لكنَّه يقترب من القرون اللاحقة من ناحية المؤلَّفات الجديدة، ومن ناحية أصول الحديث وتطور مصطلحاته وتصنيف الكتب في نقد ما دون في العصور السابقة. ففي هذه المرحلة بدأ التصنيف في إكمال ونقد الصحيحين بشكلٍ خاصٍ. وهكذا تكون هذه المرحلة مرحلة انتقالٍ خصبٍ بين عهد التصنيفً وعهد الاكتمال في علوم الحديث.

وبسبب ما أثبتناه من خصائص لهذه المرحلة الممتدة عبر القرنين الهجريين الرابع والخامس فإننا نرى أنها يُمكن أن تُقبل وتُدرس في علم تاريخ تدوين الحديث مرحلة باسم "عصر الحفاظ السبعة."

المصادر والمراجع

الأبناسي، إبراهيم بن موسى، الشذى الفيَّاح من علوم ابن الصلاح (تحقيق صلاح فتحي هلل)، 2/1، مكتبة الرشد، 1998/1418.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد، منهاج السنة، (تحقيق محمد رشاد سالم)، الرياض، 1986/1406.

ابن جماعة بدر الدين محمد بن إبراهيم الكناني، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث؛ (تحقيق محي الدين عبد الرحمن رمضان)، دمشق 1406.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، بيروت 1358.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، لسان الميزان، بيروت 1406 /1986.

ابن خير، أبو بكر محمد الإشبيلي، فهرسة، بيروت 1998.

ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، مقدمة في علوم الحديث (تحقيق نور الدين عتر) بيروت 1986/1406.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق (عمر بن غرامه العمروي)، دار الفكر، 1995/1415.

ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، اختصار علوم الحديث (تحقيق أحمد محمد شاكر)، بيروت 1408.

ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص، المقنع في علوم الحديث (تحقيق عبد الله بن يوسف الجديع)، 1–2، السعودية، 1413.

ابن نقطة، محمد بن عبد الغني البغدادي، إكمال الإكمال، (تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي)، مكة 1410.

أبو غدة، عبد الفتاح، (السنة النبوية ومدلولها الشرعي والتعريف بحال سنن الدارقطني) (ترجمة: أنبياء يلدرم، أبحاث أصول الإسلام، عدد 5، كانون الثاني– حزيران، 2006، ص: 93–94.

إزميرلي، إسماعيل حقي، تاريخ الحديث، (Hadis Tarihi) نشر ابراهيم خطيب اوغلو اسطنبول 2002.

أطمجه، ولي، (البيهقي هويته العلمية ومساهمته في علوم الحديث في التصنيف الموضوعي)، مجلة كلية الإلهيات في جامعة أتاتورك ("Beyhaki, İlmî Hüvviyeti ve Hadis İlimlerinde Tür Edebiyatına Katkısı", Atatürk Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi) العدد 26، أرضروم 2006.

أفندي أوغلي، محمد، معرفة الصحابة، (*DİA*, "Ma'rifetü's-sahâbe") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 28/60–61.

أوزدمير، محمد، الأندلس، (*DİA*, "Endülüs") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 11/214.

أوسطه، آيدن، السامانيين، (*DİA*, "Sâmânîler") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 36/65.

بدر، مرتضى، المتقدمون والمتأخرون، ("Mütekaddimîn ve müteahhirîn", *DİA*) الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية ، 32/186–187.

البلقيني، عمر بن رسلان، محاسن الاصطلاح، (تحقيق عائشة عبد الرحمن)، القاهرة، دار المعارف.

بوينوكالن، عمر ، كتاب الحافظ عبد الغني الأزدي المسمى الغوامض والمبهمات، (Hafız Abdülğani el-Ezdî'nin el-Ğavâmız ve'l-

Mübhemat Adlı Eseri) جامعة مرمرة معهد العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير غير مطبوعة، إسطنبول، 1991.

تُرَر، عثمان، حلية الأولياء، (“Hilyetü’l-evliya”, *DİA*) الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية ، 18/51–52.

جاقان، إسماعيل لطفي، الحديث (Ana Hatlarıyla Hadis)، إسطنبول، 2005.

الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، (تحقيق بشار عوَّاد معروف)، بيروت، 1422/2002.

الخطيب البغدادي، الفصل لوصل المدرج للنقل (تحقيق محمد مطر الزهراني)، الرياض 1417/1997.

الخطيب البغدادي، القول في علم النجوم (تحقيق يوسف بن محمد سعيد) الرياض 1999.

الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر، الضعفاء والمتروكون، (تحقيق عبد الرحمن محمد القشيري)، المدينة، 1403.

الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر، العلل الواردة في الأحاديث النبوية (تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي) الرياض، 1405/1985.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام (تحقيق بشار عواد معروف)، بيروت 2003.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، (تحقيق محمد زاهد الكوثري)، بيروت 1423/2002.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، (تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره)، بيروت، 1405/1985.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، الموقظة في علم مصطلح الحديث، (تحقيق عبد الفتاح أبو غدة) حلب 1412.

الرحيلي، عبد الله بن ضيف الله، الإمام أبو الحسن الدارقطني وآثاره العلمية، جدة، 1421/2000.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، (تحقيق محمود محمد الطناجي)، 1313.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، فتح المغيث شرح ألفية الحديث، لبنان 1403.

سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، علوم القرآن والحديث، (نقله إلى العلابي محمود فهمي حجازي)، الرياض، 1991/1411.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تقريب الراوي في شرح تقريب النووي (تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف)، 1–2، بيروت 1988/1409.

صندقجي، كمال، السابق واللاحق، (*DİA*, "Sâbık ve lâhik") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية ، 373/35.

صندقجي، كمال، المؤتلف والمختلف، (*DİA*, "el-Mü'telif ve'l-muhtelif") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية 191/32.

صندقجي كمال – تكنش، آيهان، "المتشابه"، (*DİA*, "Müştebih") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية ، 170/32–171.

عاشق قُطلي، أمين، مبهم، (*DİA*, "Mübhem") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية ، 436/31–437.

عبد الله بن يوسف بن الجديع، "مسألة في الصفات"، مجلة الحكمة،1، ليدز 1993/1414، ص 290.

العراقي أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح (تحقيق أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن)، 1969/1389.

العمري، أكرم ضياء، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، بيروت

فيضه، مصطفى، "أوائل تواريخ المدن في العالم الإسلامي وكتاب المدينة المنورة لابن شبة" مجلة كلية الإلهيات جامعة أنقرة، (İslam Dünyasında "İlk şehir Tarihleri ve İbn Şebbe'nin Medine-i Münevvere Tarihi") مجلد 28، أنقرة 1986، ص: 167–180.

قاندَمير، م. ياشار، "الخطيب البغدادي"، (*DİA*, "Hatîb el-Bağdâdî") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية 453/16–454.

قره كوزأوغلي، م. ماجد، علل الحديث، (*DİA*, "İlelü'l-hadis") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 22/84-86.

قره كوز أوغلي، م. ماجد، الرواة الضعفاء وادب الضعفاء والروايات الضعيفة، (Zayıf Raviler Duafa Literatürü ve Zayıf Rivayetler) إسطنبول، 2014.

القنوجي، صديق حسن خان، أبجد العلوم، بيروت 1423/2002.

الكتاني، محمد بن جعفر، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، (تحقيق محمد المنتصر)، بيروت 1414/1993.

الكتاني، الرسالة المستطرفة، (ترجمة يوسف اوزبك)، (Hadis Literatürü) إسطنبول 1994.

كلج، يوسف، الخطيب البغدادي والسلطات العلمية التي استفاد منها ورواة الحديث، (el-Hatibu'l-Bağdâdî ve Yararlandığı İlim Otoriteleri ve Hadis Ravileri) إسطنبول، 1997.

ليث سعود جاسم، ابن عبد البر النمري، ("İbn Abdülberr en-Nemerî", *DİA*) الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية، 19/269.

النووي، التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحدث (تحقيق محمد عثمان الخشت)، بيروت 1405/1985.

ياووز، يوسف شوقي، "دلائل النبوة" (*DİA*, "Delâilü'n-nübüvve") الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركية 9/117-118.

يغيت، أيوب، حياة الإمام البيهقي وآرائه العقدية، (İmam Beyhakî'nin Hayatı ve İtikadi Görüşleri) جامعة يوزونجويِل، معهد العلوم الاجتماعية (رسالة ماجستير لم تطبع) وان، 2013.

يلماز أورنك، بتول، مصطلح الحافظ كلقب ومحور، (Ta'dil Lafız ve Unvan Olarak Hafız Terimi) جامعة مرمرة معهد العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير لم تطبع، إسطنبول، 2014.

يوجَل، أحمد، تاريخ الحديث، (Hadis Tarihi) إسطنبول 2012.